المكتبة الثقافية
١٠

الشرق والإسلام
فى أدب جوته

عبد الرحمن صدقى

المكتبة الثقافية

١٠

الشرق والإسلام في أدب جوته

عبد الرحمن صدقي

وزارة
الثقافة والإرشاد القومي
الاقليم الجنوبي
الادارة العامة للثقافة

المكتبة الثقافية

مكتبة جامعة لكل أنواع المعرفة
فاحرص على ما فاتك منها ...

والطلب من :

١ ــ دار القلم .... ١٨ شارع سوق التوفيقية

٢ ــ مكاتب شركة توزيع الأخبار ... فى الإقليم المصرى

٣ ــ وكلاء الشركة القومية .... فى جميع البلاد العربية

الناشر

دار القلم

١٨ شارع سوق التوفيقية بالقاهرة

مقدمة

ما زال حتى اليوم مقرراً فى الأذهان ، ومردداً على كل لسان ذلك البيت المقتضب للشاعر « رديارد كبلنج » : (الشرق شرق ، والغرب غرب ، وهيهات يلتقيان) .

على حين أن القليل من التقصى فى دراسة التاريخ المقارن ، وسير الحضارات ، ونشأة العقائد والأفكار ، مع التماس النزاهة فى البحث والعلو عن الأغراض ، كفيل بالتخفيف من تعصب كل جنس لجنسه ، وادعائه الفضل كله لنفسه .

ولا شك أن طبيعة الإنسان واحدة فى جملة تركيبها ، وقرارة نوازعها . والمطالع لتاريخ الإنسانية من قديم يعجب لها كيف تحلم منذ الأزل نفس الأحلام ، وتعانى من نقائضها نفس الآلام . ويرى كيف أن كل حضارة من الحضارات قبلنا ، قد عرض لها مع اتساع الرقعة واشتباك المصالح ، مثل ما يعرض لنا من مشكلات ، وكيف أن الفكر البشرى بالأمس البعيد كان يشغله فهم مانعالج اليوم فهمه من الأسرار والمعميات ، وأن الأولين على قصور عدتهم قد ألموا بأمهات المسائل كلها ، ولمسوا على

وجه من الوجوه أطرافاً من فروعها . وهذا ما دعا إلى قول القائل : « ما ترك الأول للآخر ؟ »

والحق أنه ما من مشكلة اجتماعية ، أو أزمة نفسية ، أو مطلب فكرى ، إلا وأصوله عريقة ضاربة فى القدم . ومن ثمة ما نشهده من حرص على دراسة الماضى ، وما لا يزال ملحوظاً فى عصر كل نهضة من مراجعة القديم ، والتثبت منه عند كل تجديد حقيقى قويم .

ومن هذا القبيل ما نجده فى الحين بعد الحين من إقبال البعض ، من قادة الفكر ، وأعلامه فى الغرب ، على دراسة الحضارات الأولى فى الشرق . وفى طليعة هؤلاء ، وخير مثال عليهم ، الأديب العالم ، شاعر ألمانيا الأكبر « جوته » .



جوته الشرقي

وفي أواخر القرن الثامن عشر من الميلاد ، في الصميم من بلاد الشمال ، وتحت سمائه الحاملة ذات الغيوم ، وفي ظلال أشجاره الوارفة من الحور والبلوط ، ظهر شاعر فحل من شعراء الدنيا العظام ، هو : « جوهان ولفانج جوته » كبير أدباء الألمان وشاعرهم الأعظم . .

وجوته رجل نادر المثال ، لم ينحصر في نطاق ، ولم يستأثر به أسلوب ، ولم ينذر نفسه لمذهب ، ولم يكظه لون من ألوان الحياة ؛ بل عاش منهوم الحس ظاهره وباطنه ، يستوعب كل ما صادفه ، ويضيف إلى حياته كل ما أمكن إضافته ، كأن همه أن يتحقق في شخصه الإنسان كله ، بجملته وبمعناه الأعم المطلق . وهذا النزوع إلى استيعاب الإنسانية كان حافز حياته الطويلة من أولها إلى آخرها . فاجتمع فيه الشاعر الشادي ، والعالم الطبيعي ، والمفكر ، والفيلسوف . واقتسم تآليفه الثائر ، والمحافظ ، والصوفي . ولم يكن جوته في أدبه بالمواطن الألماني وحده ، ولا بالأوروبي وحده ، بل كان العالمي ، وبعبارة واحدة ، تعانق فيه الغرب والشرق.

ونحن هنا نقصر كلامنا على جوته الشرقي !

الشروق
فى قصص "العهد القديم"

كان طبيعياً أن تكون أول إلمامة بالشرق لشاعرنا «جوته» فى صباه عن طريق التوراة التى كانت أمه كثيرة العكوف على قراءتها ، عميقة التشبع بها . وقد كان والد الصبى شديد السهر على تعليمه ، وهو الذى وضع لهذا التعليم برنامجه ، ولم يكن ليسمح بعد وضعه إياه أن يدخله أدنى تغيير ، أو يحاد عنه قيد أنملة . وكان هذا البرنامج يشمل التاريخ ، والجغرافيا ، والنبات ، والرياضة ، والرسم ، والموسيقى ، فضلا عن الدين ، كما كان يشمل من اللغات الحيــة الفرنسية ، والإنجليزية ، والإيطالية ، ومن اللغات القديمة اللاتينيّة ، والإغريقية ، فضلا عن العبرانية لغة الكتاب المقدس .

وكانت مدينة « فرانكفورت على نهر المين » وهى موطن الأسرة ـ قد زحفت عليها فى مستهل عام ١٧٥٩ أثناء استعداد أهلها للاحتفال بعيد أول السنة ، فرقة من الجيوش الفرنسية المشتركة فى حرب السنوات السبع التى كانت تدور رحاها فى البلاد الألمانية ، انتصاراً لملكة النمسا « مارى تيريز » ضد مطامع « فردريك الثانى » ملك بروسيا ، وقد دام احتلال الفرنسيين

لمدينة فرانكفورت منذ ذلك الحين نحو أربع سنوات (١٧٥٩ - ١٧٦٣) وقد أفاد الشاعر من ذلك اختلاطه بالفرنسيين ، وإتقانه لغتهم، وشهوده لفرقهم التمثيلية ، التي غرست فيه حب المسرح ، والتأليف المسرحي . ولكن ذلك لم يكن ليشغل فتانا الذي لم يتجاوز الثالثة عشرة من عمره عن دراسة العبرية ، التي بدا له أنها ضرورية لا غناء عنها، لفهم التوراة في نصها الأصلي . وقد استجاب والده لرغبته ، فوكل تعليمه في المدة من سنة ١٧٦٢ لسنة ١٧٦٥ للأستاذ البرخت Albrecht وهو خوري ، يلبس المسح الديني ، والشعر المستعار ؛ وكان يتولى إلى جانب تعليم تلميذه اللغة العبرية شرح التوراة ؛ وكانت تلتمع عيناه المحمرتان وتهفو على ثغره ابتسامة متهكمة وهو يشرح له النصوص الدينية ، ناقداً لها في التواء وتورية . وكان يقابل بالضحك ، والسخرية إلحاف تلميذه في السؤال بغية الاستيضاح والفهم ؛ مؤكداً للصبي أنه حري بأن يهنئ نفسه لو استطاع أن يتلو النص العبري للتوراة مجرد تلاوة ؛ أما فهمها فتلك مسألة أخرى . ولم يكن من شأن هذه الوخزة إلا أن زادت من عناد الصبي ؛ فلم يلبث أن ترجم من السفر القديم بعض نصوصه العبرية إلى اللغة الألمانية .

ولم يكن يدفع جوته إلى هـذا الإصرار إيمانه بالتوراة ؛

ويقينه بأنها منزلة من السماء كما هى بنصها وفصها ؛ واطمئنانه إلى جميع ما جاء بها . فقد كانت للصبى اعتراضات عليها منذ صباه ، أثارت عجب أستاذه ، الذى كان يشجعه عليها بضحكاته المفتعلة ذات الدلالة الخفية . وإنما كان اهتمامه للتوراة ، وإعجابه بها من ناحيتها الأدبية ، بما تعرضه من وصف للبيئات ، ورسم للشخصيات ، وعلى الأخص ما ترويه من المغامرات القصصية ، والمواقف الغرامية .

فلا غرو إذا رأيناه يتحدث عن التوراة على أنها فى معظمها كتاب شعر من أقدم كتب الأشعار . وليس من شك عندنا فى أنه وهو يقرأ منها « سفر أيوب » قد ذكر زلزال لشبونة، الذى وقع عام ١٧٥٥ فملأت مسامعه وهو بعد فى السادسة من عمره أخبار الكارثة وفظائعها حتى روعت أحلامه وزلزلت إيمانه . ولكن شاعرنا كان كثير الوقوف عند مواضع الحب الساذج الطبيعى مثل « قصة راعوث » ، وأكثر منها عند « نشيد الإنشاد » الذى كان دائم الرجوع إليه والتغنى به . وإذا كان شاعرنا قد أسف على شىء فقد كان أسفه على كون هذه الأناشيد مقطعات مقتضبة ، وأنها فى إيرادها كيفما اتفق ، وتكديسها من غير نسق ، لا تحمل إليه المتعة الصرفة فى أكمل صورها ، ولكنه مع ذلك كان

يحس فيها ذلك الجو الشعرى ، الذى تفتحت فيه تلك النفوس الشاعرة ، ويستروح فى هذا السفر العاطفى من أوله إلى آخره مسرى نسمة حلوة دفيئة ، تهب من أرض كنعان الحبيبة ، وتتراءى له حياة الحقول الوادعة ومزارع الكروم ومنبسط الرياض ومنابت الطيب العاطر ، ومن ورائها يأنس زحمة المدن بأهلها ، ويتخيل فيما وراء ذلك جميعه قصر سليمان فى بذخه ، وغلوائه ، بين المئات من سراريه ونسائه ، ومع ذلك يبقى الموضوع الأساسى ، ذلك الهوى المضطرم النارى ، بين قلبين فى عنفوان الصبا ، لا يكفان عن طلب اللقاء ، فإذا كان لقاء أعقبه الجفاء ، ثم لا يزالان فى دفع وجذب فى سلسلة متتابعة من مواقف الحب بلغت الغاية التى لا غاية بعدها ، فى السذاجة الأولية ، والبساطة الطبيعية .

وقد تأثر جوته الصبى بأكثر من قصة من قصص التوراة العبرية ، فترجم بعض مقطوعاتها شعراً ، مثل «نشيد الإنشاد» ، كما طاب له أن يضع وهو فى هذه السن الصغيرة قصة لغلام فى مثل سنه ، فكتب « يوسف وإخوته » .

ولم تكن هذه التخريجات للقصص الدينى ، والتفريعات عليه ، شيئاً مستجداً على الألمان . وكان من السابقين إلى ذلك الشاعر

«جوهان بودمر Johann Bodmer» (١٦٩٨ - ١٧٨٣) مترجم ملحمة ملتون الدينية « الفردوس المفقود » ، فقد تناول قصص التوراة فى شعره ، ومن ذلك منظومتان عن يوسف أولاهما : « يوسف وزليخا » وتتألف من نشيدين ، والأخرى : « يعقوب ويوسف » من ثلاثة أناشيد . ولكن الذى هز ألمانيا كلها هو صاحب الملحمة المسيحية » الشاعر « فردريك كلوبستوك Friedriek klopstock » بما اجترأ عليه من عرضها فى قالب من الشعر الموزون غير المقفى ، على مثال ملتون ، وما بثه فيها من الحرارة والانفعال القوى . وقد ذكر جوته تأثره وهو طفل بهذا الشاعر مع ما كان من إنكار والده لشعره غير المقفى ، ولكنه نفى أنه قرأ لسلفه « بودمر » شيئاً على الإطلاق أو شيئاً يذكر من شعر القصص الدينى .

ويقرر جوته فى مذكراته « شعر وحقيقة » فيما رواه عن صباه ، أنه جعل همه فى قصته عن « يوسف وإخوته » التوسع فى سردها بأن يدخل عليها هنا وهناك ، وقائع ومواقف زيادة فى التفصيل ، ليجعل من تلك القصة القديمة الساذجة عملا أدبياً مستطرفاً ، وقد بلغ من رضى الغلام عن قصته أن ضم إليها بعض ما كان قد تيسر له نظمه من أشعار - عدا غير المقفى منها - وجعل من ذلك جميعه مخطوطة جميلة ، فى مجلد جميل ، أهداه إلى والده .

الشرق الإسلامي
كما يتمثل في القرآن وفي حياة محمد

وتنتقل جوته من الشرق كما تمثله قصص التوراة في « العهد القديم » إلى الشرق الإسلامي كما يتمثل في القرآن الكريم وفي حياة محمد النبي العربي .

ولاشك عندنا في أن مطالعة الشاعر الألماني « سفر أيوب » كانت قد زودته بفكرة رفيعة عما جبل عليه العربي ، من قريحة وطبيعة . وقد يتساءل البعض عن العلاقة بين هذا السفر العبري من أسفار التوراة ، وبين العربية . ولكن التحقيق العلمي في عهد « جوته » نفسه قد نفى عن هذا الكتاب نسبته إلى موسى وغيره من العبرانيين ، وأثبتها للعرب المجاورين . وهذا المحقق هو أستاذ شاعرنا «جوته» وأستاذ عصره كله في أدب العبرانيين ، وتاريخهم ونعني به «جوهان جودفريد هردر Johann Gottfried Herder » إذ يقول في كتابه عن الشعر العبري : « إن موسى عندي شاعر عظيم . ولكن القول بأنه مؤلف « سفر أيوب » كالقول بأن سليمان مؤلف الإلياذة . ويمكنني القول دون مفاخرة ، أني درست في إمعان طابع الأشعار العبرانية كلها . وأدخلت

فى حسابى الأحوال المتغيرة ، والسنين المتعاقبة . ومع ذلك ظل الفارق بين أسفار موسى و « سفر أيوب » كالمسافة بين المغرب والمشرق . وذلك أن الشعر الموسوى حتى فى رفيع المقطوعات لايخلو من ليونة ونعومة ، بخلاف الشعر فى سفر أيوب، فهو جامع فى إيجازه البليغ ، زاخر بمعناه العميق ، فيه قوة وبطولة ، منيف على الذروة العليا من العبارة والخيال ، تشهد أفكاره فى حدود جملته وفى تقاطيع تفصيله ، على أنه نسيج وحده ، فلم تتكرر قوالبه ومعانيه فى غيره من أسفار العبرانيين ، كما هو الشأن فى هذه الأسفار ، مما يقطع بأن صاحبه عربى ، من مشايخ القبائل ذوى الثراء ، وأنه من الأدوميين فى الحدود بين العبرانيين ، والعرب الجاهلين» وهذا بعينه ما كان قد ذهب إليه بعض آباء الكنيسة الأولين أنفسهم من اليونان واللاتين ، ومنهم أوريجين والقديس جريجوار القائلان بأن أيوب هو نفسه الذى كتب هذا الشعر بالعربية وهى لغة بلاده الطبيعية، ثم جاء موسى فترجمه إلى العبرية . وقد أيدت هذا الرأى بوجه العموم بحوث المتأخرين من العلماء المتخصصين ونذكر منهم « أرنست رينان » الفيلسوف الفرنسى فى كتابه عن سفر أيوب ، كما أصبح هذا القول من الحقائق المقررة منذ ذلك الحين . ولا معدى لنا عن أن ننبه هنا إلى أن جوته كان متأثرا

بما جاء من تحدى الشيطان لله فى فاتحة « سفر أيوب » حين ذكر الله عبده بالتقى والصلاح ، فقد جاء جوته بمثل ذلك فى مسرحيته الكبرى « فاوست » إذ جعل لها « فاتحة فى السماء » ذكر الله فيها العلامة فاوست بالخير فتحدى الشيطان ربه فى إفساده .

ولقد اتصل « جوته » أثناء مقامه فى استراسبورج (بإقليم الالزاس) عامى ١٧٧٠ ١٧٧١ بذلك العلامة الأديب « هردر » فأذكى فى الشاعر غرامه بالشرق ، فكان من أثر إستحثاثه له أن شرع بعيد عودته إلى بلدته فرانكفورت فى الاهتمام بالشرق العربى .

وطبيعى أن لا يكون هنالك ماهو أجلّ قدرا وأبلغ أثرا من القرآن الكريم ونبى الإسلام العظيم .

القرآن الكريم

وهاهو ذا « جوته » فى فرانكفورت عام ١٧٧٢ يعكف على تلاوة القرآن فى ترجمة ألمانية أنجزها يومئذ أحد أبناء بلدته ، المستشرق العلامة « مرجرلين Mergerlin » حتى إذا فرغ منها عكف من بعدها على تلاوة القرآن فى ترجمة لاتينية سابقة لها ، طبعها فى مدينة بادوا (فى الشمال الشرقى من إيطاليا) القس الجزويتى « ماراتشى Maracci » عام ١٦٩٨ وأعيد طبعها عام ١٧٢١ بمدينة ليبزج الألمانية .

وما إن أتم جوته تلاوة القرآن فى الترجمتين ، حتى اقتبس بعض الآيات القرآنية ، نقلا عن الترجمة الألمانية . ونحن نعرف اليوم ما اقتبسه الشاعر الألمانى من الآيات ، بفضل طبعها بعد ذلك فى مجلد للمرة الأولى بمعرفة « شول Scholl » عام ١٨٤٦ .

وهذه الآيات هى قوله تعالى : « بلى ، من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » - « ولله المشرق والمغرب ، فأينما تولوا فثم وجه الله ، إن الله واسع عليم » - « إن فى خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس ، وما

أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض ، لآيات لقوم يعقلون » - « ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء ، صم بكم عمى فهم لا يعقلون » - « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة ، والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ، والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا ، وأولئك هم المتقون » وكلها من سورة البقرة . ثم من سورة آل عمران قوله تعالى : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً ، وسيجزى الله الشاكرين » ، « وما كان الله ليطلعكم على الغيب ، ولكن الله يجتبى من رسله من يشاء ، فآمنوا بالله ورسله وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم » ومن سورة النساء : « مذبذبين بين ذلك ، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا » . ومن سورة المائدة : « ولو أن

أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم ، ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم . منهم أمة مقتصدة ، وكثير منهم ساء ما يعملون » ، « يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم ، عفا الله عنها ، والله غفور حليم . قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين » . ومن سورة الأنعام : « وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين » . ومن سورة يونس : « دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام » . ومن سورة يوسف : « إذ قالوا : ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة ، إن أبانا لفى ضلال مبين » ومن سورة الإسراء : « أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر ، إن قرآن الفجر كان مشهودا » . ومن سورة طه : « قال رب اشرح لى صدرى » . ومن سورة العنكبوت : « خلق الله السموات والأرض بالحق ، إن فى ذلك لآية للمؤمنين » — « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون » — « وقالوا لولا أنزل عليه آية من ربه ، قل إنما الآيات عند الله ، وإنما أنا نذير مبين » .

وقد ظل جوته طويلا يمعن فى دراسة القرآن إمعان الباحثين . وهو يقول إن القارئ الأجنبى قد يمله لأول قراءته، ولكنه يعود فينجذب إليه ، وفى النهاية يروعه ويلزمه الإكبار والتعظيم . ويستشهد جوته فى كلامه عن القرآن الكريم وما جاء به من تعاليم الدين بهذه الآيات : ـ « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون . إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون . ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم » . ويقول جوته إن القرآن يردد قواعد هذه التعاليم ، ويكرر البشير والنذير سورة بعد سورة ، وهو لا يرى فى هذا الترديد والتكرار ما يراه النقاد الغربيون ، لأن محمدا لم يرسل برسالة « شاعر » للتفنن فى القول والتنويع فى ضروب الكلام وعرض الصور المزوقة من الأخيلة والأوهام ، لاستحداث اللذة وإدخال الطرب ، بل هو بنص القرآن بعيد عن هذا الوصف ، وإنما محمد « نبى » مرسل لغرض مقدر مرسوم يتوخى إليه أبسط وسيلة وأقوم طريق ، وهذا الغرض هو إعلان الشريعة وجمع الأمم حولها لينضووا تحت لوائها . فالكتاب

المنزل على محمد إنما بعث به إلى الناس ليقتضيهم الخبوت والإيمان لا لمجرد المتعة والاستحسان، ومن ثمة نراه إذا ما عرض للقصص الديني لم يعرضه معرض التاريخ والأخبار، بل يقتصر منا على مكان الحكمة ومضرب الأمثال ومواضع الاعتبار.

ويظهر فى شعر جوته الأخير الذى أسماه «الديوان الشرقى للمؤلف الغربى» تأثره بالقرآن فى روحه وعباراته. فالقارئ المسلم لا يسعه إلا أن يذكر من الآيات القرآنية أكثر من واحدة حين يقرأ المقطوعة التالية لجوته:

«لله المشرق ولله المغرب، وفى راحتيه الشمال والجنوب جميعا. هو الحق، وما يشاء بعباده فهو الحق، سبحانه له الأسماء الحسنى، وتبارك اسمه الحق، وتعالى علواً كبيراً. آمين.

«ينازعنى وسواس الغىّ، وأنت المعيذ من شر الوسواس الخناس. فاللهم اهدنى فى الأعمال والنيات إلى الصراط المستقيم

«ومهما زينت النزعات والشهوات، فالنفس لا تذهب شعاعا ولا تضيع ضياعاً، ولا تلبث بما أودع فيها من الحفاظ والإباء أن تنطلق عارجة إلى أوج العلاء.

«وللناس فى ترديد أنفاسهم آيتان من الشهيق والزفير: هذا يفعم الصدر، وهذا يفرج عنه. كذلك الحياة عجيبة التركيب.

فاشكر ربك إذا بليت ، واشكر ربك إذا عوفيت » .

ويعمد جوته أحياناً إلى التضمين الصريح . ومن ذلك تضمينه للآية الكريمة « إن الله لا يستحى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها » ، فيقول فى مقطوعة له بعنوان التشبيه :

« لم لا أصطنع من التشابيه ما أشاء ، والله لا يستحى أن يضرب مثلا للحياة بعوضة ؟ .

« لم لا أصطنع من التشابيه ما أشاء ، والله يجلو لى فى جمال عينىّ الحبيبة ، لمحة من جماله رائعة عجيبة » .

وغير خاف أن العالم المسيحى كان بطبيعة الحال فى أيام الحروب الصليبية وفى أثناء الفتوحات العثمانية فى أوروبا سيء الرأى فى صاحب الدعوة الإسلامية. وكانت الكنيسة الكاثوليكية تتجاهل كتب السيرة النبوية، ليتسع المجال لتصوير «محمد» على خلاف صورته التاريخية دون تعرض للدعوة الدينية، كما كانت تتجاهل القرآن ولا تعترف بوجوده، وقد بلغ من ذلك أن أحرقت نسخة القرآن العربية فى البندقية عام ١٥٣٠ وأن حرم البابا إسكندر طبعه وترجمته. وكانت التراجم الأولى للقرآن فى القرنين السادس عشر والسابع عشر، مشفوعة دائما بالمقدمات، والحواشى، والتذييلات فى دحضه وتفنيده من قبيل الاعلان من جانب المترجمين عن حسن إيمانهم، ودفعاً للشبهة عن أنفسهم، وتزكية لعملهم وتكفيراعنه فى عقيدتهم وعند أهل ملتهم. ثم أخذ الموقف مع دخول القرن الثامن عشر الذى يسمونه «عصر النور» يدخل عليه التحسن شيئا فشيئاً على نحو مستمر، ولكنه لا يكاد يحسّ به من فرط بطئه.

وكان العالم الهولندى « أدريان ريلان Adrien Reland » أول من أمسك القلم من العلماء الأحرار للعمل على رد الاعتبار للإسلام، وصاحب الرسالة فى كتابه عن « الديانة المحمدية »، ثم طلع من بعــــده المستشرق الفرنسى « أرنست جانييه Ernest Gagnier بكتابه « حياة محمد » عام ١٧٢٣ وقد نقل فيه إلى اللاتينية سيرة النبي عن المؤرخ العربى « أبو الفـــدا »، ولا شك أن اعتماد المستشرق على مصادر جديدة غير مصادر القوم الخرافية دليل على ترفعه عن التعصب الأعمى، واعتصامه قدر الاستطاعة بروح الإنصاف، والتزام المنهج الموضوعى.

واقتفى أثر هؤلاء وتقدم عليهم غيرهم مثل « هنرى كونت دى بولا نفلييه» Henri Comte de Boulainvilliers «عام ١٧٣٠ فى كتابه «حياة محمد» الذى يأخذ عليه المتعصبون من أهل ملته أنه يتحدث عن صاحب الدعوة الإسلامية، باعتباره رسولا للعناية الإلهية.

ولقد اطلع شاعرنا جوته فى عام ١٧٧٣ على الجزئين الأولين من « تاريخ محمد — مشرع العربية Histoire de la vie de mahomet legislateur de l'Arabie لمؤلفه الفرنسى « تربن Francois-Henri Turpin وهو من قبيل من ذكرناهم على وجه العموم.

ولكنه لا ينبغى أن يغيب عن البال أن ما يسمونه عصر النور لغلبة الفلسفة العقلية التى مهدت للثورة الفرنسية فى أواخره، كان دعاته يحملون حملة شعواء على الأديان عامة، ولا يريدون أن يروا فى أصحاب الدين إلا أصحاب مخرقة دجالين، يزعمون للناس أنهم من المرسلين الملهمين.

ومن هؤلاء «فولتير» الذى أراد أن يروّج لهذا التفكير اللاديني على المسرح بطريقته الملتوية غير المستقيمة. وقد كان هذا دأبه ومنهجه الذى درج عليه منذ البداية، فنراه فى مسرحيته الأولى «أوديب» عام ١٧١٨ يتظاهر بمهاجمة الكهان فى الوثنية، وهو يعنى الكنيسة المسيحية، كما فهم من أراد الفهم من القارئين والسامعين من منطوق قوله: «إن رجال الدين عندنا ليسوا كما يتخيله عامة شعبنا؛ إن علمهم المزعوم كله إنما هو من صنع وهمنا واعتقادنا». بيد أن فولتير فى هذه المرة أراد أن يتقدم خطوة أخرى إلى الهدف، فاستدبر خلفه رجال الدين، وانتحى نحو النبيين ولما لم يكن فى الاستطاعة - حتى لو واتته الشجاعة - أن يتعرض فى مواجهة جمهور المسرح الأوروبى - وهم فى جملتهم على الدين المسيحى - لأحد الأنبياء الذين تقدم ذكرهم فى الكتاب المقدس سواء فى العهد القديم أو فى العهد الجديد،

فلم يبق أمامه إلا أن يتعرض لنبي المسلمين ، ليتوصل من ذلك إلى الطعن من طرف خفي على كل نبي . فكتب مسرحيته « التعصب أو محمد النبي » عام ١٧٤١ ، ورأى إمعاناً في التعمية على رقابة المطبوعات فضلا عن الأخذ بالحيطة والاعتصام بالتقيّة أن يجعل - وهو المشهور بعدائه اللدود للكنيسة - إهداء المسرحية إلى البابا « بنوا الرابع عشر » مختتماً الإهداء بقوله : وبعد ، فليأذن لي - صاحب القداسة - أن أضع المسرحية ومؤلفها عند موطئ قدميه ، وأن أزداد جرأة ، فألتمس منه للمسرحية الرعاية ، ولمؤلفها البركة » . ولم يكن البابا ليفوته ما يستهدفه « فولتير » من وراء مسرحيته ، فرد عليه بعد أسابيع بكتاب اقتصر فيه على القول بأنه قرأ « مسرحية محمد » باهتمام . وقد مثلت المسرحية في مدينة « ليل » أولاً عام ١٧٤١ ، ثم قدمتها « الكوميدي فرانسيز » في باريس عام ١٨٤٢ فاحتج عليها السفير التركي لدى الحكومة الفرنسية ، وعقـــد مؤتمراً دعا إليه كتاب فرنسا الأحرار ، فأوقفت الحكومة تمثيلها ولم تزد حفلاتها على الثلاث ، وظلت بعدها تسعة أعوام متوارية في الظلام .

وطبيعي أن لا يعنينا هذا الموقف من « فولتير » مادام هو وأمثاله

من كتاب الثورة الفرنسية معدودين من الملاحدة حيناً ، ومن منكرى النبوات عامة فى أكثر الأحايين .

وأما الذى يعنينا فى هذا المقام فهو رأى غير المتعصبين من أهل الديانات الأخرى ، والذين لم يختم الله على قلوبهم فلم تظلم بصيرتها ولم ينضب فيها معين الإيمان . وقد ذكرنا كيف تطور هؤلاء ، واعتدل موقفهم وزاد اعتبارهم لفضل الإسلام وإعجابهم بشخصية محمد ، بقدر إمعانهم فى دراسة التعاليم القرآنية ، وإطلاعهم على السيرة النبوية فى مصادرها الحقيقية . وغير جدير بنا مع ذلك أن نتوقع منهم وهم على غير هذا الدين أن يتحدثوا عن صاحب الدعوة الإسلامية، كما نتحدث نحن المسلمين ، بل حسبهم - وهذا قصاراهم - هدمهم الخرافات المزرية التى أشيعت عن محمد فى العالم المسيحى ، وإظهارهم محمداً للعـــالم المسيحى مؤمناً صالحاً يعبد الله ثابت اليقين ، ومجاهداً أرادت مشيئة الله أن تتخذه من المرسلين لنشر عقيدة التوحيد بين العالمين .

ولا يسعنا إذا ذكرنا هؤلاء المنصفين إلا أن نضع فى طليعتهم صاحب هذا القول المبين ، وهو شاعرنا «جوته» إذ يقول فى بعض أشعار الحـكمة من ديوانه :

«من حماقة الإنسان فى دنياه
أن يتعصب كل منا لما يراه ؛
وإذا الإسلام كان معناه التسليم لله
فإننا أجمعين ، نحيا ونموت مسلمين . »

ولقد كان جوته مولعاً بالمسرح منذ حداثته الأولى . ويرجع ذلك إلى التأثير الذى تركه فى نفسه مسرح العرائس الذى أهدته إياه جدته فى عيد الميلاد وهو فى السابعة من عمره . ويذكر جوته فى بعض مذكراته المسماة « تلمذة ولهلم مايستر » ، من أول عروض هذا المسرح ، قصة داود الصبى وجلياط العملاق القوى من قصص التوراة ، ويذكر بعد ذلك كيف قام فى هذه السن المبكرة بإلقاء دور كل منهما فى لهجة متقنة ، وكيف كان يعبث فى مكتبة والده فى طلب مسرحيات أفضل من هذه ليخرجها مع أخته العزيزة الدميمة «كورنليا» الصغيرة ، مع الاكتفاء من هذه المسرحيات بالفصل الأخير سواء أكانت درامات ألمانية أم أوبرات إيطالية ، وكانت الأخيرة هى الأثيرة عنده لأن استخدام عرائسه الخشبية فيها مثل داود وجلياط ، كان أكثر جوازاً من استخدامها فى الدرامات العادية . ولقد أعقب هذا التطور ما سبق أن ذكرناه فى الفصل السابق من تردده وهو فى العاشرة من عمره على الفرق الفرنسية التى جاءت

على أثر احتلال الفرنسيين لبلدته فرانكفورت أثناء حرب الأعوام السبعة ، وشهوده مسرحياتها مع النظارة المتفرجين فضلا عن اطلاعه على مايجرى وراء المسرح بفضل معرفته لبعض المساعدين الفتيان المتصلين بالفرقة .

وقد كان من أثر هذا جميعه ، أن تطلع الفتى إلى محاولة تأليف المسرحيات من قصص التوراة ، لتمثلها تلك الفرق الفرنسية وهى محاولات أحرقها بعد ذلك فيما أحرقه من آثار الصبا ، وهو طالب فى ليبزج (١٧٦٥ - ١٧٦٩) . ولقد وضع شاعرنا فى هذه المدينة أكثر من مسرحية بعضها مفقود والبعض موجود بين أيدينا ، سواء فى نصّها ، أو مشروعها ، وهى شاهدة بما كان ملازماً جوته منذ البداية من الولع بالتمثيليات .

فلا غرابة بعد ذلك إذا علمنا ما انعقد عليه عزم الشاعر الألمانى من تأليف تمثيلية عن محمد ، وشروعه فيها منذ عام ١٧٧٣ إذ نظم منها ذلك العام فاتحة الفصل الأول : « مناجاة محمد » وهو فتى ، وقد خلا بنفسه بالليل ، بعيداً فى البادية ، تحت سماء صافية سافرة النجوم . وقد اعتمد الشاعر فى المناجاة على مضمون هذه الآيات من سورة الأنعام فى دحض الشرك : « وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة إنى أراك وقومك فى ضلال مبين .

وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين . فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربى ، فلما أفل قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى ، فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر ، فلما أفلت قال يا قوم إنى برىء مما تشركون . إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين » .

وختم الشاعر مناجاة النبى بقوله :

« فارتفع أيها القلب العامر بالحب نحو الخالق .
إنك وحدك مولاى يارب !
إنك الحب المحيط بكل شىء
خالق الشمس والقمر والكواكب
خالق السماء والأرض ، وخالق نفسى . »

وبعد هذه المناجاة يدير جوته حواراً بين محمد ومرضعته حليمة .

محمد : « يرى شبح حليمة مقبلة » : ـ حليمة ! أكان لا بد من قدومها فى هذه الساعة العامرة بالسعادة : « مخاطباً حليمة » ماذا تريدين منى يا حليمة ؟ .

حليمة : لا تقلقنى هكذا يا بنى الحبيب ، إنى أبحث عنك منذ

غروب الشمس . لا تعرض شبابك الغض لأهوال الليل ومخاطره .

محمد : سيان عند الأشرار الليل والنهار . إن الرذيلة وحدها تجر إلى التهلكة ، كما يستجلب الضفدع سم الأفعى . وقد يكون الصبا كالتعويذة النافعة تحت هذه السماء الرائعة .

حليمة : تظل وحدك طول الليل بعيداً فى هذه البادية التى يعيث فيها الذؤبان وقطاع الطريق .

محمد : لست وحدى . إن الله ربى يؤنس وحدتى .

حليمة : أرأيته ؟ .

محمد : ألا ترينه ؟ عند كل عين جارية ، وتحت كل شجرة مزهرة ، أراه بعين البصيرة مقبلا على ، وأحسّ حرارة عطفه وحبه . ما أعظم عرفانى لفضله وتسبيحى بحمده ! لقد فتح صدرى وانتزع الشغاف عنه حتى أحس قربه فى الصميم من قلبى .

حليمة : إنك حالم واهم ! فكيف يمكن أن تكون حياً بعد أن يفتح صدرك ؟

محمد : سأدعو الله حتى يلهمك أن تفهمينى .

حليمة : ومن هو ربك ؟ أهو هبل أم العزى ؟ .

محمد : يا للقوم المناكيد ! إنك تتوجهين إلى الحجر بحبك ! — إنك تطلبين من الصلصال أن يحميك ! هذه الأرباب ليس لها أذن تسمع الدعاء ، ولا قدرة على تلبية النداء .

حليمة : إن الحجر يعمره عامر ، والصلصال يحوم حوله حائم ، وإنه ليسمعنى وهو قادر عظيم .

محمد : ماذا يمكن أن تكون قدرته وثمة ثلاثمائة مثله ؟ .

حليمة : أليس مثل ربك أحد .

محمد : إذا كان الرب كفوا ، أيكون بعدها ربا ؟

حليمة : فى أى مكان يحلّ .

محمد : فى كل مكان .

حليمة : سيان هذا والقول أنه غير ذى مكان . فكيف إذن تدركه ؟ .

محمد : اللهم أبتهل إليك أن تنقذ البشر من ضلالهم ،فهم أجمعون إليك يارب راغبون، وإلى وجهك الكريم متطلعون.

وقد ورد فى مذكرات جوته التى أسماها « شعر وحقيقة » ما يفيد أنه نظم أشعارا غنائية عديدة لتأخذ مكانها من التمثيلية ، ولكن ما بقى منها بين أيدينا نشيد واحد كان قد نشره الشاعر

فى التقويم الشعرى الصادر فى جوتنجن Gottingen عام ١٧٧٣ وهذا النشيد على صورة مقطعات يتناوب إنشادها « علىّ » القائد الشجاع الأمين وزوجته « فاطمة » بنت الرسول ، تحية للنبى . وهو تصوير رائع لهذه القوة التى فجرها الله على يد رسوله خاتم المرسلين ، ووصف شعرى لفيض الإسلام ، وسرعة ذيوعه حتى انتظم النجاد والوهاد ، وبلغ إلى المحيط الأعظم :

على : انظروا إلى السيل العارم القوى ، وقد انحدر من الجبل الشامخ العلى ، أبلج متألقاً كأنه الكوكب الدرى .

فاطمة : لقد أرضعته من وراء السحاب ملائكة الخير فى مهده بين الصخور والأدغال .

على : وإنه لينهمر فى السحاب ، مندفعاً فى عنفوان الشباب ، ولا يزال فى انحداره على جلامد الصخر ، يتنزى فائراً متوثباً نحو السماء ، مهللا تهليل الفرح .

فاطمة : جارفاً فى طريقه الحصى المجزع والغثاء الأحوى .

على : وكالقائد المقدام ، الجرىء الجنان ، الثابت الخطى ، يجر فى أثره جداول الربى .

فاطمة : ويبلغ الوادى ، فتتفتح الأزهار تحت أقدامه ، وتحيا المروج من أنفاسه .

على : لاشىء يستوقفه ، لا الوادى الوارف الظليل ، ولا الأزهار تلتف حول قدميه وتطوق رجليه ، وترمقه بلحاظها الوامقة . بل هو مندفع عجلان صامد إلى الوهاد .

فاطمة : وهذه أنهار الوهاد تسعى إليه فى سماح ومحبة ، مستسلمة له مندمجة فيه ، وهذا هو يجرى فى الوهاد ، فخوراً بعبابه السلسال الفضى .

على : الوهاد والنجاد كلها فخورة به .

فاطمة : وأنهار الوهاد ، وجداول النجاد تهلل جميعاً من الفرح متصايحة .

على وفاطمة فى صوت واحد } خذنا معك ! خذنا معك ! .

فاطمة : خذنا معك إلى البحر المحيط الأزلى ، الذى ينتظرنا باسطاً ذراعيه . لقد طال ما بسطهما ليضم أبناءه المشتاقين إليه .

على : وما كان هذا الفيض كله ليبقى مقصورا على الصحراء الجرداء . ما كان هذا الفيض ليغيض فى رمال الرمضاء ، وتمتصه الشمس الصالبة فى كبد السماء ، ويصده الكثيب من الكثبان ، فيلبث عنده غديرا راكدا من الغدران . أيها السيل ، خذ معك أنهار الوهاد ! .

فاطمة : وجداول النجاد ،

علي وفاطمة في صوت واحد } خذنا معك ! خذنا معك ! .

علي : هلم جميعاً ، هو ذا العباب يطم ويزخر ، ويزداد عظمة على عظمة ، هو ذا شعب بأسره ، وعلى رأسه زعيمه الأكبر مرتفعاً إلى أوج العلا ، وهو في زحفه الظافر ، يجوب الآفاق ويخلع اسمه على الأقطار ، وتنشأ عند قدميه المدائن والأمصار .

فاطمة : ولكنه ماض قدماً لا يلوى على شيء ، لا على المدائن الزاهرة، ولا على الأبراج المشيدة، أو القباب المتوهجة الذرى، ولا على صروح المرمر ، وكلها من آثار فضله .

علي : وعلى متن عبابه الجبار تجرى منشئات السفن كالأعلام ، شارعة أشرعتها الخفاقة إلى السماء ، شاهدة على قوته وعظمته ، وهكذا يمضى السيل العظيم إلى الأمام بأبنائه .

فاطمة : ويمضى إلى الأمام ببناته .

علي وفاطمة في صوت واحد } إلى أبيهم ، ذلك البحر العظيم ، الذى ينتظرهم ليضمهم إلى صدره ، وهو يعج بالفرح العميم .

ولعل هذا الحوار الشعرى فى تحية النبى كان مقصودا به أن يكون ختام المسرحية ، أو مشهد ،قبيل ختامها . بيد أن الشاعر

حين ضم إلى مجموعة أشعاره التى نشرها عام ١٧٨٩ هـــذه القصيدة أدرجها على غير نسق الحوار الذى كانت عليه فجاءت فى المجموعة مرسلة من غير تقطيع ، وجعل عنوانها «النشيد المحمدى» .

ولم تزل فكرة هذه التمثيلية الشعرية عن « محمد » ماثلة فى مخيلة « جوته » حتى وضع مشروعها ، وعلى مقتضاه تبدأ الرواية بنشيد ينشده محمد وحده بالليل تحت السماء الساجية ، ويشعر بنفسه العاكفة على التأمل والتفكير تسمو صعداً إلى الله الواحد الأحد الذى تستمد سائر الكائنات آية وجودها من وجوده . ويكاشف النبى بهذا الهدى زوجته خديجة فتؤمن به عن طيب نفس أول من يؤمن .

وفى الفصل الثانى يقوم النبى يناصره « على » بالدعوة إلى دينه بين عشيرته وقومه، فيلقى العطف من فريق والمعارضة من فريق ، كل على حسب طبعه وتركيب مزاجه . ويقع الخلف بين القوم وتشتد الملاحاة ويضطر محمد إلى الهجرة .

وفى الفصل الثالث ينتصر محمد على خصومه ، ويطهر الكعبة من الأوثان . وتستوى دعوته شريعة مقررة ، وتجتمع له أسباب الجهاد قولا وفعلا . ويظهر الرجل السياسى إلى جانب الرجل الدينى .

وفى الفصل الرابع يتابع محمد مغازيه ويتخذ لها عدتها

ويتوسل بوسائلها . وتدس له السم امرأة من يهود خيبر ثكلت أخاها .

وفى الفصل الخامس يبلغ محمـــد أوج كماله وتتجلى عظمته الروحية ، ثم تعاوده عقابيل السم ، فينتقل إلى جوار ربه .

ومما يؤسف له أن تقف مثل هذه المسرحية عند حد المشروع .

ولقد ظل جوته على إعجابه بالقرآن والإسلام حتى نهاية حياته . ومما يذكر للاستشهاد به فى هذا الصدد أن الجنود الألمانية التى اشتركت إلى جانب نابليون فى حربه الإسبانية حين عادوا إلى موطنهم بعد نكبته فى روسيا وانقلاب حليفته بروسيا عليه ، كانت فرقة ويمار تحمل فى عودتها من إسبانيا صفحة من مصحف مخطوط عليها السورة الأخيرة من القرآن . فعكف جوته على هذه الصفحة يحاكى حروفها وكأنما تحمل إليه وهو ينسخها عبير الشرق . ولم يقر له قرار حتى حصل فى ٢٢ أكتوبر ١٨١٣ من المستشرق « إشتاد Eichstadt » على ترجمتها بالألمانية .

وقد أعقب ذلك فى يناير عام ١٨١٤ أن جازت مدينة « ويمار » فى أعقاب الفرنسيين المنهزمين أفواج بعد أفواج من الجيوش الروسية ومن بينها فرقة من فرسان البشكير وهم من رعايا روسيا التتار المسلمين ، فتمثل عندها فى خيال جوته زحف جيوش التتار

فى القرن الرابع عشر متدفقين من الشرق إلى الغرب بقيادة تيمور الأعرج الجبار. وقد نزل فرسان البشكير بالمدينة برهة، واتخذوا من ردهة المعهد البروتستانتى مسجدا للصلاة، فأتيح لأهل ويمار أن يشهدوا صلاة المسلمين. ولقد بلغ من وقع ذلك فى نفوسهم أن أقبل بعضهم وفى مقدمتهم سيدات المدينة على استعارة القرآن من المكتبة حتى يكونوا فى المعرفة على مستوى المناسبة. ولم يفت شاعرنا جوته أن يشهد صلاة هؤلاء المسلمين ويسمعهم يرتلون آيات القرآن الكريم فتأخذه -كالقوة الخفية- روعته، وإن لم يفقه مبناه وعبارته، كما رأى إمامهم واستقبل أميرهم فى مسرح ويمار. وإنه ليذكر فى هزة المحبور، أنهم اختصوه من رعايتهم له بقوس وسهام، وكان يعلقها فوق موقده فى البيت تذكارا عزيزا باقيا.

وحسبنا هذا شاهدا على سعة أفق « جوته » وسمو فكره ونزاهة حكمه وترفعه عن التعصب الشعوبى والدينى. ولا يسعنا نحن المسلمين إلا الاغتباط بموقف هذا الأديب العظيم من الإسلام وكتابه المبين، ونبيه الكريم والتابعين.

الشرق العربي
فى الشعر الجاهلى

بعد هذا الذى تقدم بنا من عكوف جوته فى « ويمار » على مطالعة ما صدر من ترجمات للقرآن العربى ، ومن تراجم لسيرة النبى العربى الذى أنزل عليه القرآن وأرسل به ، لم يبق أمام شاعرنا الألمانى للإحاطة بالموضوع من بقية نواحيه إلا أن يطلع كذلك على الشعر العربى القديم .

فلا غرو إذا رأينا « جوته » فى عام ١٧٨٣ يبادر بالاتصال بمكتبة جامعة « جوتنجن Goettingin لتوافيه بالمعلقات العربية فى ترجمتها الإنجليزية التى أصدرها فى لندن المستشرق « وليم جونز William Jones » فى ذلك العام نفسه ، وما كاد الكتاب يرد على شاعرنا وتحتويه يداه حتى انكب عليه يطالعه فى روية وإمعان .

وهكذا عاش الشاعر الألمانى فى عصر الجاهلية العربى بفضل ما ترجم إلى اللغات الأوروبية وقتئذ من المعلقات ، تلك القصائد المطولات التى أحرزت السبق فى المسابقات الأدبية التى كانت تعقدها القبائل فى أسواقها الموسمية .

فى هذه المعلقات العربية عاش « جوته » مع العرب البادية من

الرعاة المقاتلة وهم لا يبرحون فى غارات إثر غارات ، يؤجج ضرامها ما كان لا يبرح قائماً بين قبائلهم من ترات قديمة دفينة أو خصومات طارئة مستحدثة .

ويقول «جوته» إن هذه المعلقات تحدثه بأقوى بيان عن العصبية التى كانت تربط أبناء القبيلة الواحدة ، وو تدله على ما انطبع عليه العربى من روح الإقدام والبسالة ، والتحرز من العار والاستمساك بدرك الثأر ، وطلاب المجد والتماس الفخار . ويقول إنه إذا كان شعراء العرب قد استهلوا قصائدهم بالغزل والنسيب ، فليس هذا منهم بعجيب ، فإن ما يعرضون له فى شعرهم من صفة الحرب بفضائلها الصلبة القاسية ومناظرها الدامية ، قد دعاهم إلى أن يقدموا بين يدى هذه الصورة القوية للعنجهية الجاهلية ، ما يلطف حدتها ويخفف شدتها من وصف محاسن الحبيبة ، وبث لواعج الحب ، وشكوى الجفاء أو البعد ، وترديد الحنين وتوكيد الحفاظ على الود .

ويزيد فى قيمة المعلقات السبع عند شاعر الألمان أن لكل منها صفة غالبة تتميز بها ويشوق القارئ تنوعها . وهو يرى فيها رأى مترجمها المستشرق الإنجليزى ، وخلاصته : أن معلقة «امرئ القيس» رقيقة مرحة ، مشرقة المعنى ، رشيقة اللفظ ، شتى الفنون

ذات رونق مستحب وطلاوة مستطابة . ومعلقة « طرفه » تتسم بالجرأة والحيوية والتوثب ويسرى فيها الابتهاج والتطرب . ومعلقة « زهير » رصينة متزمتة ، عفيفة مترفعة ، حافلة بالتعاليم الخلقية الراجحة والحكم الجليلة النافعة . ومعلقة « لبيد » لطيفة الوقع بارعة الحكاية أنيقة الديباجة ، يشكو فيها الشاعر من جفاء حبيبته ، ليخلص من ذلك إلى تعداد مناقبه والإشادة بقبيلته . كما تطالعنا معلقة « عنترة » مستكبرة متفاخرة ، متحدية ، متوعدة بليغة الدلالة ، جزلة العبارة ، وهى مع ذلك حالية بمحاسن الوصف والاستعارة ، وكذلك ينشدنا «عمرو بن كلثوم التغلبى» معلقته فى قوة عارضة وجلالة مهيبة وفخامة رائعة ؛ وعلى وتيرة أخرى ينشدنا «الحارث بن حلزة» معلقته وهو فيها غزير الحكمة ، نافذ البصيرة ، ظاهر السمت وافر الكرامة .

وقراء العربية يذكرون لا محالة تلك الحرب الضروس التى دارت رحاها طويلا بين قبيلتى بكر وتغلب من جراء «البسوس» وكيف تصالحت القبيلتان آخر الأمر على يد « عمرو بن هند » أحد ملوك الحيرة من آل المنذر ، ثم ما كان بعد ذلك من تنازعهما فى مجلسه ، وقيام « الحارث بن حلزة » شاعر بكر وإلقائه معلقته التى عطف بها الملك إلى قومه ، وانصراف « عمرو بن كلثوم »

شاعر تغلب وسيدها وهو ناقم موغر الصدر ، ثم ما وقع بعد ذلك من دعوة الملك للشاعر التغلبى وأمه إلى زيارة بلاطه وهو يضمر التحرش به والغض من اعتزازه ، فلم يملك الشاعر أن ثار به الغضب ، فوثب إلى سيف الملك ـ وكان معلقا بجدار الرواق وليس هناك سيف غيره ـ فضرب به الملك فقتله ، وعاد توا إلى موطن قومه فى الجزيرة الفراتية حيث نظم معلقته التى يقول فيها .

بأى مشيئة ـ عمرَو بن هند ـ
تُطيع بنا الوشاةَ وتزدرينا
فإن قناتنا ياعمرو أعيت
على الأعداء قبلك أن تلينا

وكان من شيوع هذه المعلقة وتناقلها بين الناس ، ومفاخرة بنى تغلب بما جاء بها وإكثارهم من روايتها وإنشادها أن قال فيهم الشاعر :

ألهَى بنى تغلب عن كل مكرمة
قصيدةٌ قالها عمرو بن كلثوم
يفاخرون بها مذ كان أولُهم
يا للرجال لشعر غير مسئوم

وقد بلغ من حماسة « جوته » ، وهو يطالع الترجمة الإنجليزية لهذه المعلقات فى عام ١٧٨٣ أن أرسل فى الرابع عشر من نوفمبر من ذلك العام نفسه إلى صديق له هو : « كارل فون كنيبل Karl von Knebel » يخبره بعزمه على أن يحاول بدوره ترجمة المعلقات . وقد أمكن العثور على هذه المحاولة أخيراً ، فأضيفت إلى آثار جوته فى طبعة ويمار . وبعد سنوات عديدة من هذه المحاولة وقع جوته فى ثنايا رسالة للدكتوراه عام ١٨١٤ على ترجمة لاتينية لقصيدة للشاعر العربى الجاهلى الذى استشهر باسم « تأبط شرا » وهى قصيدته التى يتوعد فيها بنى هذيل بالانتقام ، وقد جاءت فى باب المراثى فى مختارات « الحماسة » لأبى تمام ومطلعها :

إن فى الشعب الذى دون سَلْع
لقتيلا دمه ما يُطَلّ

ويقول « جوته » إن لباب هذه القصيدة ونخاع صلبها هو عظمة الشخصية ، وخطر الموضوع وجسامته مع قسوة الأخذ بالثأر فى مشروعيته ، وهو يعقب عليها شارحاً سياقها ، مبيناً مواقفها ، وكيف أصبحت الحكاية فيها شعراً بحسن تصرف الشاعر العربى فى سوق التفاصيل وتدبير أوضاعها واختيار مواقعها ، مع البعد كل البعد عن زخارف القول بحيث يبقى على

القصيدة طابع الجد والحدث الجلل ، مما جعل القارئ لها يشهد بعين خياله تطور وقائعها من البداية إلى النهاية ، كما لو كان فى موقف صاحبها .

ومما يجدر ذكره أن الشاعر الألمانى قد أورد - فيما أورد - قول أبناء العربية فى معرض الفخر : إن العرب مطبوعون بفطرتهم على الشعر . وهو يعقب على ذلك بقوله : لا بد فى مثل هذه الأمة الشاعرة من نبوغ العدد العديد من فحول الشعراء فإذا اختصوا منهم بالذكر - على تطاول الأزمان وتعاقب الأجيال - سبعة فقط ليكونوا أصحاب المعلقات ، فليس لنا إلا النزول على حكمهم وتلقى قرارهم بالتسليم والإخبات .

وإن القارئ لا يتمالك نفسه من الدهشة لما يبديه جوته من قبول سخى كريم للتشبع بالروح العربى . فقد اجتمع كتّاب الغرب على رأى — لا يخلو من شبهة العصبية الذميمة — وهو أن الحضارة الحديثة مهدها يونان القديمة . فلنسمع هنا إلى الشاعر الألمانى ، يعلن فى حماسة وإيمان قوى ، عدوله عنها إلى حضارة الشرق العربى ، فى حاضرة العباسيين الزاهرة ، على ضفاف الفرات أيام هرون الرشيد والبرامكة .

وهذا ما قاله جوته فى إحدى مقطعات ديوانه الشرقى :

« دع الإغريق المثّال ، يجبل الطينة ، ويصنع التمثال ، وليفتتن بعدها ماشاء الافتتان بالدمية التى أبدعتها يداه الصناعتان .

« أما نحن فإن متعتنا لجة الفرات ، نسبح فيها مسترسلين مع عنصر الماء ، حتى إذا ارتوت غلة النفس ، تفجرت أفاويق الشعر فياضة مترنمة . فليغترف الشاعر من هذا الفيض بكفه الطهور ، فإنه ليتكور فى يديه متلألئاً كالبللور » .

كذلك يعرض الشاعر الألمانى إلى أغراض الشعر ، فلا ينكر على العرب تقسيمهم إياه إلى أبواب أربعة : الغزل ، والخمريات ، والمديح ، والهجاء . وفى ذلك يقول :

« كم هى العناصر التى يتألف منها الشعر فترضاه الخاصة ويلذ سماعه العامة ؟ .

« إذا قيل شعر ، فالنسيب المقدم . فإن الحب إذا دخل الشعر زاد نبراته عذوبة وحلاوة .

« ثم على الشعر أن يردد رنين الأقداح وهى تتلألأ بما فيها من عتيق الراح كأنها الياقوت ، فالعشاق والندامى هم وحدهم من نرتاح لهم ونستطيب مجلسهم .

« كذلك يطيب فى الشعر أن يقرع السمع بصليل السيوف ، ودوى النفير ، وجلبة الوغى ، فإذا انجلت المعركة عن البطل الظافر

كان من حقه المديح بما أبداه من العزيمة وشدة الأسر، وما أصابه في ميدان الشرف من الغلبة والنصر .

« ولا معدى للشاعر فى آخر الأمر ، عن استنكار أشياء شتى والتعرض لأصحابها بالهجاء المر ، فما كان لمثله أن يلقى الكريه القبيح ، بمثل ما يلقى المستحب المليح .

« فإذا اجتمعت للشاعر هذه العناصر الأربعة ، فقد أشاع الحياة والبهجة بين الورى أجمعين ، إلى أبد الآبدين »

ويبلغ من تأثر جوته بمطالعاته فى الشعر الجاهلى ، أن تستهويه حياة رجل البادية العربى فيقول فى مقطوعة له بعنوان « المنن الأربع » :

« لكى يسعد العرب فى بيدائهم ، راتعين فى بحبوحة فضائهم ، أولاهم المولى ذو الفضل العميم أربع منن :

« أولى هذه المنن : العمامة ، وهى زينة أروع من التيجان كافة .

« ثم الخيمة يحملونها من مكان إلى مكان ، حتى يعمروا كل مكان .

« ثم حسام بتار ، هو أمنع من الحصون وشاهق الأسوار .

« وأخيرا - وليس آخرا - القصيد الذى يؤنس ويفيد ، ويستهوى أسماع الحسان الغيد » .

ويسترسل شاعرنا الألمانى فى حماسته ، حتى ينتهى الأمر به إلى النقمة على حياة المدنية ، والتكبير والتهليل لما ينعم به الفارس البدوى من الحرية :

«دعونى - كما أهوى - على صهوة جوادى، واقبعوا أنتم فى بيوت المدر وخيام الوبر ! إننى لأنطلق جذلان فى هذا الفضاء الشاسع وليس فوق عمامتى إلا النجوم الزواهر . وما زينت السماء الدنيا بمصابيح إلا هدى للناس ومتعة للناظرين » .

وقد بلغ هذا الشغف بالشرق العربى من جوته غاية مبالغه ، حتى كان يعالج محاكاة الكتابة العربية ، وإقامة حروفها ، ورسم كلماتها ،وتوجيه سطورها من اليمين إلى اليسار على خلاف الكتابة الإفرنجية . وقد جره هذا الشغف إلى التغنى بالقلم العربى المتخذ من القصب ، فنظم فيه مقطوعة بعنوان « القـــلم » .

« تخرج الأرض من القصب هذه الأعواد للترفيه بها عن العباد .

« فاللهم اجعل أصدق المشاعر وألطف الأفكار ، تفيض من القلم الذى أخط به هذه الأشعار » .

فاصلة

- بين الهجرة السابقة والهجرة اللاحقة

كان جوته بعد هجرته الروحية السابقة إلى الشرق السامى قبل الإسلام وبعده ، قد أخذت ترين عليه بعد عام ١٧٧٦ غاشية من الكلال والملل من شواغل الوظيفة السياسية والإدارية فى بلاط «ويمار»، ومن حبه لمدام «دى فون ستين» حبا لم يشف غلته ولم يؤت ثمرته ، فاشتد شعوره بالحاجة إلى الاستجمام والراحة واشتدت به السآمة من « الشمال » حتى صارت أشبه ما يكون بالمرض ، وأصبح عاجزاً عن مغالبة ما ينازعه من الرغبة فى الرحيل إلى الشمس والحياة البسيطة الطليقة الباسمة . وكان لا يزال يذكر منذ الطفولة تلك الرسوم المحفورة التى يعلقها والده فى بيت الأسرة المجدد ممثلة لمناظر إيطاليا ، ومن بينها الصراط الصخرى الذى ينحدر بين صفحات الثلوج وخمائل الصنوبر إلى تلك البحيرات الزرق المحفوفة بشجر الزيتون والليمون. ولكن «جوته» حين سأل الدوق وهمافى «كارلسباد» مدينة الحمامات الحارة فى «بوهيميا» أن يأذن له فى عطلة طويلة للراحة لم يذكر له وجهته بل أخفاها عنه وعن حبيبته وسائر أصدقائه . ثم تعمد السفر خلسة فى الثالث من نوفمبر عام ١٧٨٦ فى الساعة الثالثة

صباحاً باسم مستعار «جان فيليب مولر Jean Philippe Moeller» وكانت هجرته إلى «الجنوب» إلى أرض إيطاليا التي قال فيها في كتابه «ولهلم ميستر» على لسان «منيون Mignon» اللطيفة هذه المقطوعة (عام ١٧٨٤):

«أتعرفُ الأرض التي يزهر فيها الليمون بعبيره الزكي
«ويضطرم في دجى أشجارها الوارقة التفاح الذهبي
«وتسري نسمة حلوة دافئة في سمائها اللازوردية الصافية
«وينمو في رباها الآس الناضر والغـــار الفاخر؟
«أتعرفها حق المعرفة !!؟
«هناك، أجل هناك، أريد أن أمضي ياحبيبي معك!».

ولقد أطال شاعرنا الإقامة في أرض إيطاليا المشرقة حتى يونيو عام ١٧٨٨ ثم كرر لها الزيارة عام ١٧٩٠. فلما أن عاد إلى «ويمار» كان أكثر استعداداً وأسرع اشتياقا إلى الهجرة الروحية مرة أخرى إلى الشرق قاصيه ودانيه.

ولقد تحقق حلم «جوته» فاحتوته إيطاليا، فأخذ يجول في نجادها ووهادها، وعلى ضفاف أنهارها وحول بحيراتها، وخلال حقولها ووسط مزارعها حيث تخطر العجول الضخمة وتسرع صغار الحمير محملة ظهورها بالسلال المملوءة، وقد انتشر الفلاحون

والفلاحات هنا وهناك فى «نابولى» و «صقلية» وسهول «لومبارديا» وهم يعملون فى الأرض وفى نفوسهم الرضى والابتهاج بالحياة. وفى هذه البيئة شعر «جوته» باقترابه من « أمنّا الأرض »، وأنه يتصرف بكامل حريته فى وحدته ، دون اسم يحرجه ومن غير مهنة تقيده. وقد أبى أن يحدثه دليله المرشد عن التاريخ، كما أبى الاهتمام للكنائس، بل كانت بغيته الاستغراق هنا فى جنة الطبيعة وفى آثار الحضارة اليونانية الرومانية القديمة. وقد ترك لنا الشاعر هذه الانطباعات المزدوجة فى مجموعة من الأشعار أسماها « أغانى رومانية Romische Elegieen ».

وقد أجمع النقاد على أنها بلغت الذروة حتى قال بعضهم: إنه لا يذكر فى الأدب اليونانى أو الرومانى هذا الجمع بين الفكرة العالية التى تجعل الشعر عظيما وقوة الانفعال الشخصى الذى يجعل الشعر مؤثرا.

وننقل فيما يلى نماذج من بعض المقطوعات:

المقطوعة الأولى

«أيتها الحجارة، حدثينى! أيتها الصروح الباذخة أجيبى! أيتها الطرق، انطقى بكلمة واحدة! ألا تستيقظين أيتها العبقرية؟

بلى كل شىء حتى فى أسوارك القدسية يا روما الخالدة . إلا فى ناظرى وعند خاطرى ، فما برح الصمت على كل شىء مخيما .

« ألا من يوسوس لى فى أية نافذة ! أنا ناظر فى يوم من الأيام إلى الطلعة الحلوة التى ستحيي لى كل شىء وهى تغنينى ؟ أليس لى أن أهتدى إلى السبيل الذى يدرج فيه وقتى النفيس ذهابا إليها وإياباً من عندها ؟ .

« لم أر حتى اليوم إلا بيعا وصروحا ، وأطلالا وعمداً ، كالسائح الحازم الحريص على الفائدة من رحلته . ولكن سرعان ما أودع كل هذا ، فلا يبقى بعده غير هيكل واحد ، هيكل الحب يقبل عليه العارف بأسراره .

« أنت يا روما عالم ! ولكن العالم بغير الحب لا يكون عالما ، وروما لا تكون روما .

المقطوعة الخامسة

بعد أن استحدث الشاعر علاقة غرامية

« على أرض الآثار تستخفنى حماسة قدسية ، وتحدثنى العصور الخوالى والعصور الحواضر باللحن الجهير فتؤنسنى . هنا أطالع فكر الأقدمين ، وأقلب بيد الخشوع صفحات أعمالهم فتستجد لى متعة فى كل نهار ، أما الليل فيشغلنى فيه الحب بشواغل أخرى

فإذا بات حظى من العلم نصفه، فلقد أصبت من السعادة ضعفيها .

« وبعد أفليس من التعلم والدرس أن يتأمل البصر تكوير نهد كاعب، وأن تجرى الكف على استدارة خصر مبتَّل ؟ وإنى لأفهم حينذاك ولا أفهم قبل ذاك ما الرخام، وما التماثيل ؛ وإنى لأفكر وأقارن، وأرى بعين تحس، وأحس بكف ترى .

« ولئن سلبتنى الغانية سويعات من النهار فإنها تعوضنى عنها ساعات فى الليل . وليس الليل كله بعناق ! فإننا لنتحدث فيه الحديث الرصين . وتأخذها سنة من النوم فتنازعنى ألف فكرة. وأنظم بين ذراعيها، وأقسّم بأصابعى الماجنة على ظهرها تفاعيل بحر من القريض . وهى فى منامها تتنفس فتضرمنى أنفاسها حتى سويداء قلبى . والحب يتعهد أبدا مصباحه الوقاد، حالماً بالعهد القـــديم الذى أدى فيه هذه الألطاف للأسبقين من الولاة الرومانيين » .

الشرق الأقصى

أطال شاعرنا جوته الإقامة فى أرض إيطاليا المشرقة حتى ١٨ يونيو عام ١٧٨٨ ثم كرر لها الزيارة عام ١٧٩٠ فلما أن عاد ثانية إلى وظيفته فى بلاط « ويمار » عاوده حنينه الروحى إلى الشرق مرة أخرى . ولقد كان لجوته مقنع وأى مقنع فى رحلته الروحية الأولى إلى الشرق السامى ، ولكن جوته المفكر العالم هو بعينه جوته المحب الفنان فى نزوعه إلى التنقل . ومن ثمة استجاب لما حفزه إليه « هردر » وغيره من ورود مناهل الثقافة الآرية كما يقولون ، فى أدب الشرق الأقصى .

وكان جوته قد اطلع قبيل ذهابه إلى بلاط ويمار على ترجمة ألمانية عام ١٦٨١ لما نشره الطبيب الهولندى « أوليفيه دابرا Olivier Dapper » من البحوث المستفيضة عن الشرق خاصة . وفى هذه البحوث كان المؤلف يكدس خرافات الهند تكديساً، معتمداً على الملحمة الهندية الكبرى « مهابهارته Mahabharata » . وقد استوقفه منها على الأخص عقيدة التجسد وما ترويه عن تجسد « الآله ڤشنو Vichnou» فى صورة الفتى الجميل راما Rama ابن ملك أوده . ثم زواج الأمير راما من ذات الحسن والجمال سيتا Sita

وما كان من نفى « راما » بسعاية امرأة أبيه ثم طمع ملك الجن « رافانا » ملك الجنوب فى الحظوة بزوجته التى بلغه صيت جمالها فاختطفها على عجلة سحرية حملتها إلى سيلان ، ثم قيام راما إلى استخلاص زوجته ، واستجاشته أهالى الهند الجنوبية الأصليين ، وإغارته على سيلان وانتصاره بمساعدة ملك القردة « هانومان » وظفره بملك الجن رافانا وقتله وإنقاذه زوجته الحسناء التى استهدفت لمحنة أخرى هى ارتياب زوجها فيها ونفيه لها .

ولقد نجح شاعرنا جوته فى إحياء هذه القصة على الرغم من كثرة أسمائها وتشابك أحداثها ، وكان تناوله للقرد المقدس على نحو مستطرف حببه إلى القراء . ولكن شاعرنا يشير فى مذكراته « شعر وحقيقة » إلى أن هذه الخلائق المروعة الهائلة العجيبة التكوين بعيدة كل البعد عن الحق الذى هو دائماً بغيته المنشودة.

بيد أن هذا التعرف لآلهة الهند العديدة وهذا الاطلاع على مطولات أساطيرهم والتيهان فى شعاب مذاهبهم حيث تختلط الشهوات بالقداسات وتلتقى الأرض بالسموات ، قد استولد قريحة شاعرنا - إلى جانب « الفاتحة المسرحية » فى فاوست - جملة من الأساطير الهندية صاغها فى أروع صورة وأبدع نظم ، بحيث صارت من فرائد موشحاته القصصية من النوع المعروف عند

الألمان باسم Ballade وفى مقدمتها جميعاً أسطورة « الإله والراقصة » :

« هبط « مهاديفا » رب الأرضين للمرة السادسةوجعل نفسه واحداً منا ، وشاء أن يبلو أفراحنا وآلامنا فارتضى هذه الدنيا سكنا ، وخضع لكل شىء ، وبعد أن استطلع المدينة استطلاع السائح ، وترصد الأكابر ، ولاحظ الأصاغر غادر المدينة فى غبش المساء ، وابتعد ، وفى ظاهر المدينة حيث تقوم المنازل النائية الأخيرة لمح صبية جميلة محمرة الخدين من الطلاء ، صبية من البنات الساقطات .

— سلامى إليك أيتها العذراء .

— شكراً على هذاالشرف ! انتظر ، سأخرج إليك فى الحال.

— ومن تكونين ؟

— راقصة وهنا بيت الحب .

ثم نشطت للرقص ورنت صنوجها ، ودارت فى لطف ، ومالت وتثنت ، ومدت له باقتها خاطبة وده . وكانت فنانة فاجتذبته إلى عتبة الباب ثم إلى خدرها :

«أيها الغريب الجميل ، لسرعان ماينير كوخى ، أمتعب أنت ؟

إنى هنا رهينة بالتسرية عنك وتدليك قدميك الموجعتين ، لك كل ما تريد من راحة أو نشوة أو مداعبة »

وأقبلت على الأوجاع المتصنعة تأسوها

وابتسم الإله مغتبطاً بأن يرقب هذا القلب الآدمى الممعن فى الفساد ، فطالبها بما تؤديه الإماء من خدمات ، فإذا هى تتهلل لها وتزيد ابتهاجاً بها ، وإذا هذا الذى كان أول الأمر فى الفتاة تطبعاً يصبح وهى لا تشعر طبعاً غير متكلَّف . وكما أن الزهرة تخلفها الثمرة ، فكذلك الإخلاص إذا تفتح فى القلب كان الحب غير بعيد .

وقد شاء هذا القاضى الأعظم المتحكم فى الرفيع والوضيع أن يشتد فى ابتلائها باللذة والروعة والألم ، فقبل خدها المطلى بالحمرة فأحست عندئذ لواعج العشق ، وهامت وجداً ، وفاضت دموعها للمرة الأولى ، وجثت عند قدميه . وما تجثو اليوم ـ وا أسفاه ـ للشهوة أو للذهب ، ولكنما خذلتها أوصالها المتفترة .

وأسبل الليل أستاره الكثيفة . وفى جنح الظلام طابت الأعراس المسكرة فى فراش الغرام . وبعد موهن من الليل أخذها النعاس بين العنـــاق والقبل . ثم تنبهت مبكرة بعد هجعة قصيرة ، فألفت مضيفها الحبيب على صدرها ميتاً فولولت وانكبت عليه . ولكن هيهات أن توقظه . وسرعان ما حملوا الجسد الهامد إلى المحرقة وسمعت الكهان وتراتيل الجنازة

فأجهشت ، وانطلقت مسرعة ، وشقت الجمع .

— من أنتِ ؟ وماذا جاء بك الى المحرقة ؟ .

فانطرحت على النعش وملأت الفضاء بعويلها : «زوجى ، أريد زوجى ، سأسعى إليه حتى القبر . أتراني مبصرة جماله الأسنى يتساقط رماداً ؟ لقد كان لى أكثر من كل امرأة سواى . وا أسفاه ! ليلة نشوة واحدة » .

هذا والكهنة يرتلون : « نحن نحمل الكهول بعد أن استنفدوا أيامهم وأملى الأجلُ لهم . نحن نحمل الشباب فى ريعان الجمال قبل أن يخطر الموت لهم فى بال » .

ثم يقول الكهنة : « هذا الفتى لم يكن زوجك ، إنما أنت راقصة ، وليس لك من حق . لا يتبع الجسد إلى ملكوت الموتى الصامت إلا الظل وحده ، لا يتبع الزوج إلا الزوجة وحدها . هذا واجبها وهذا فخارها معاً . اعزفى أيتها الأبواق لحن النعى المقدس . ويا أيها الأرباب الخالدون ، أدعوا لجواركم من جوف اللهب هذا الفتى فخر زماننا » .

كذا أنشد الجميع ، فزادوا قلبها التياعاً غير راحمين ؛ فإذا هى تندفع ممدودة الذراعين ، وتلقى بنفسها فى الضرم المودى .

ولكن ، ها هو ذا الإله الفتى يرتفع من جوف اللهب معانقاً حبيبته . كذلك يرفع الخالدون بأذرعهم الملتهبة الأرواح الضالة إلى عليين . كذلك تبتهج الآلهة بندم الخاطئين .

وإلى جانب هذه الأساطير الهندية المروّعة، المتصلة بالآلهة والشياطين وأنصاف الآلهة، يحلو لشاعرنا «جوته» أن يطالع حكايات الحكيم البرهمى « بيدبا Pidpai» التى وضعها على ألسنة الحيوان لملك الهند «دبشليم» فى القرن الرابع قبل الميلاد، وأنفذ فى طلبها فى القرن السادس بعد الميلاد كسرى أنو شروان ملك الفرس الذى بلغه عنها فأشار عليه وزيره « بزرجمهر » بأن ينتدب الأديب المتطبب المجوسى « برزويه Burzouyéh » الذى أكب على نقل الكتاب من اللسان الهندى إلى اللغة البهلوية وهى الفارسية القديمة. وعن البهلوية نقلها إلى العربية عبد الله بن المقفع فى عهد الخليفة المنصور العباسى فى القرن الثامن الميلادى. ومن ذلك الحين تعددت ترجماتها إلى مختلف اللغات، فترجمت إلى الفارسية بأمر أمير خراسان نصر بن نوح، كما ترجمت إلى العبرية واللاتينية منذ القرن الثالث عشر، وإلى الفرنسية منذ عام ١٧٢٤ مما يدل على وقوعها موقع القبول عند الكافة، ولكنها عند العرب والفرس لها مكانة لا تعدلها مكانة، لما تنطوى عليه من الخبرة بالحياة والحكمة العملية. ويعلل « جوته » نقلهم هذه الحكايات دون غيرها عن الهند بأن ذلك راجع إلى عدم اتصالها بالوثنية الهندية، التى تنفر منها أذواقهم المترفة، كما تنفر عقولهم من فلسفة الدين الهندى المعوصة.

الشرق الصوفى
فى العربية والفارسية

المتصوفة فى جميع الأزمان تغلب عليهم نشوة روحية ، فهم فى شبه غيبة عن عالم الحس ، مستهلكون فى شوق غامض إلى التجرد عن أشخاصهم والاندراج فى حقيقة كلية عليا ، هى الله المحيط بكل شىء . ومعلوم أن الكافة من المتصوفة المسلمين فى كلامهم عن الله يعنونه دائماً بقولهم : « الحق » ، ويعرفون المطلب الأسمى الذى ينشده السالك فى طريقهم بأنه « الفناء فى الحق » .

وهذا الشوق يأنسه فى نفسه كل من ينظر إلى الوجود نظرة المتصوفة أو بعبارة أصح يحس به إحساساً تصوفيا ، لأن التصوف إحساس أكثر منه عقيدة . ومن ثمة كانت وجهتنا وجهة المعنى مع تعميم القول من غير تقيد بمصطلح أو تعرض لمختلف الطرق .

فالوجود كله صادر عن الله . ويسمون هذا الصدور بالتجلى . وتتجلى وحدانيته سبحانه فى خلائقه التى لا يحصى كثرتها إلا هو . فهو حقيقة الحقائق وعين الوجود ، ومنه كل موجود من شاهد ومشهود وروح ومادة ونور وظلمة . وكما أن حركة التنفس

شهيق وزفير ، وحركة القلب بسط وقبض ، وكل فعل من الأفعال له رد . فكذلك هذا التفصيل فى الخلائق المترتب على الإيجاد فإنه لا يفتأ متطلعاً إلى الاتحاد . وناموس الحب هو السائد فى عوالم الروح والنبات والجماد أيضاً حيث يتبدى فى صور مختلفات كالجذب والثقل النوعى والمغنطيسية والتزاوج الكيميائى.

ولما كان المتصوفة فى جملتهم يحسون إحساس الشعراء إلى جانب روحهم الدينى ، فهم يشهدون لمحة إلهية فى كل شىء : فى رواسى الجبال ومعتلج الأمواج وعصف الإعصار يشهدون جبروته . وفى أعماق الفضاء يزدان بالأنجم الزهراء ، وفى امتداد الصحراء تمتد فى رأى العين إلى غير انتهاء ، يشهدون عظمته . وفى ألوان المروج الحالية بالنوار وشتى الأزهار ، وفى مناغاة الجداول ونضرة الخمائل ، وفى نصاعة الثلوج على الذرى ورفيف السنابل الذهبية فى نور الضحى وترقرق الأمواه الفضية فى ضياء القمر ، يشهدون جماله . وفى ابتسامة الخفر وحمرة الخجل وإطراقة الطرف من الفتاة العذراء فى هواها العذرى للفتى ، وفى قبلة المحب للحبيبة فى لهفة غير مريبة ، وفى عناق الزوجين تمازجت نفساهما وتجاوب قلباهما ، وفى ضحكة الطفل فى لعبه البرىء وفى وفاء الصديق للصديق وفى عون الرفيق للرفيق ، يشهدون حبه .

فهم أبدا فى طلب المعانى ،حتى أصبحت، علما عليهم فعرفوا باسم « أهل المعانى ». وشعر المتصوفة كله شاهد على ما وصفناه من شهودهم معنى الربوبية فى كل شىء . قال شيخهم ابن الفارض : ـ

تراه إن غاب عنى كل جارحة
فى كل معنى لطيف رائق بهج
فى نغمة العود والناى الرخيم إذا
تألفا بين ألحان من الهزج
وفى مسارح غزلان الخمائل فى
برد الأصائل والإصباح فى البلج
وفى مساقط أنداء الغمام على
بساط نور من الأنوار منتسج
وفى مساحب أذيال النسيم إذا
أهدى إلى سحيراً أطيب الأرج
وفى التثامى ثغر الكأس مرتشفاً
ريق المدامة فى مستنزه فرج

والواصلون منهم إذ يشهدون الله فى آيات الخلق ينسون الخلق جميعاً ويذكرونه ، ويزهدون فى العرض المعروض إلى الجوهر المكنون . ويغيبون عن عالم الشهادة إلى عالم الغيب، وعن عالم الأشباح إلى عالم الروح . فهنا الخير كله والجمال كله . وقد

ذهبوا فى استعلائهم على الحسيات إلى قول بعضهم : « إن التصوف هو العصمة عن رؤية الكون » وعندهم أن التماس الجمال فى الخارج تكلف ، لأن الروح مشتملة عليه . والعاقل من يعكف فى حرم روحه يستزيدها من الخير والجمال ، فيوسع بالاحتجان والتوفر نطاق وجوده ؛ وبدلا من توزع الهمة بين المتعدد ، يحصرها فى الواحد ، فإنه فى هذا الفيض الروحى عارج إلى مصدر الفيوض وحقيقة الوجود .

وهذا الشوق عند المتصوفة أفاد العاطفة الدينية فنزهها عن المقايضة والمساومة ، وارتفع بها إلى أوج الروحانية . فلم تعد علاقة العبد بالرب مجرد الخشية من عذاب المنتقم الجبار ، ولا الطمع فى ثواب الغنى ؛ بل الحب الخالص ، كما فى قول رابعة العدوية : « إلهى ! ما عبدتك خوفا من نارك ، ولا طمعا فى جنتك ، بل حباً لك ، وقصد لقاء وجهك » . وفى دعاء آخر تبتهل رابعة إلى الله أن يعطى ما كتبه لها من نصيب فى الدنيا لأعدائه ، وما كتبه لها فى الآخرة لأوليائه ، فإنه هو حسبها .

وهذه المحبة للذات الإلهية تستولى على متصوفه الشرق حتى تتجاوز الحد ، وتضطرم اضطرام العشق ، وتتلون بوهجه . فإذا هم يشكون برح الغرام ، واحتراق القلب بلواعجه ، وكيف أضنى

أجسادهم وبرى عظمهم ، وقرح جفونهم بالبكاء ، وأطال ليلهم بالسهاد . ثم يذهبون أكثر من ذلك إلى التشكى من التدلل والصد وتمنى القرب والوصل ، وهذا كله حتى هنا سائغ على سبيل المجاز ومع كثير من التجوز ؛ إلا أنهم ليحيرون اللب حقًّا ويتعدون كل معقول حين يعرضون المحبوب بالوصف: فإذا بالجبين المسفر ، والغدائر المسدلة ، والخد الأسيل المورد ، وفتور الطرف الأدعج وما إلى ذلك مما هو أشبه بالغزل والتشبيب ؛ كقول محي الدين ابن عربى :

حقيقتى همتُ بها ... وما رآها بصرى
ولو رآها لغدا ... قتيل ذاك الحوَر
فعندما أبصرتها ... صرت بحكم النظر
فبت مسحوراً بها ... أهيم حتى السحر
كأنما أنفاسها ... أعراف مسك عطر
كأنها شمس الضحى ... فى النور أو كالقمر
إن أسفرت أبرزها ... نور صباح مسفر
أو سدلت غيّبها ... سواد ذاك الشعر

والحب حاجة قلبيه لبنى الإنسان على السواء، وكأنما يتنفسه الأحياء مع الهواء ، وإنما يتوجه به الزاهد عن الدنيا إلى الذات

العليا ، فيكون التغير فى المرتبة لا فى طبيعة الشعور ، ومن ثمة هذا الاتفاق فى التعبير بين شعر التصوف وشعر الغزل . وإنه لتمر بالقارىء الأبيات لولا معرفة ناظمها لتشابه عليه الأمر ، ففهمها على غير وجهها . بل إن المتصوفة أنفسهم ليتمثلون فى مواجدهم وحلقاتهم بأشعار العذريين ، ومنهم من يروون أن مجنون بنى عامر رؤى فى المنام فقيل له ما فعل الله بك؟ فقال : « غفر لى وجعلنى حجة على المحبين » . فالحب عندهم كل شىء وقد امتلأت به قلوبهم .

والحب عاطفة مركبة القوى . فالمرء يحب للحب ، ثم لشخص المحبوب ، وكذلك ليحس أنه محبوب . وقد لمست رابعة العدوية هذا التركيب فى قولها :

أحبك حبين حب الهـــوى
وحبًّا لأنك أهـــل لذاكا

وأما ماذهب إليه الإمام الغزالى من أنها أرادت بحب الهوى حبها لله لإحسانه إليها وإنعامه عليها بحظوظ العاجلة فلا نحسبه التفسير الأرجح ، لما هو معروف من رفضها الدنيا وزهدها حتى أصبحت فى أخريات أيامها كالخلال البالى .

ويتوسل السالك الصوفى لحصول الحال التى يشتاقها بالزهد

والتقشف ومجاهدة النفس . ويقول الشيخ على بن سينا : «فإذا بلغت به الإرادة والرياضة حداً ما ، عنّت له خلسات من إطلاع نور الحق لذيذة كأنها بروق تومض إليه،ثم تخمد عنه . وتكثر عليه الغواشى إذا أمعن فى الارتياض ، ثم إنه ليوغل فى ذلك حتى تغشاه فى غير الارتياض . وتبلغ به الرياضة مبلغاً ينقلب له وقته سكينة ، فيصير المخطوف مألوفاً ، والوميض شهاباً بيّناً ، وتحصل له معارفة مستقرة كأنها صحبة مستمرة ، وينتهى بأن يصير سره مرآة مجلوة يحاذى بها شطر الحق . وحينئذ تدر عليه اللذات العليا . ويفرح بنفسه لما يرى بها من أثر الحق . ويكون له فى هذه الرتبة نظر إلى الحق ونظر إلى نفسه . وهو بعد متردد . ثم إنه ليغيب عن نفسه فيلحظ جناب القدس فقط . وإن لحظ نفسه فمن حيث هى لاحظة . وهناك يحق الوصول » .

وتلك حال من السعادة كما يقول « ابن طفيل » لا يقوم بها وصف ، لأنه من طور غير طورها وعالم غير عالمها . ولا يمكن إثباتها على حقيقة أمرها ، لأنه متى حاول أحد ذلك وتكلفه بالقول أو الكتابة استحالت حقيقتها ؛ إذ أنها فى اكتسائها بالحروف والأصوات ، وتقريبها من عالم الشهادة لاتبقى على ماكانت عليه بوجه ، واختلفت فيها العبارات اختلافاً كثيراً .

وزلت به أقدام قوم عن الصراط المستقيم . وظن بآخرين أن أقدامهم زلت وهى لم تزل . وإنما كان ذلك لأنه أمرٌ لانهاية له فى حضرة متسعة الأكناف محيطة غير محاط بها . غير أن تلك الحال لما لها من البهجة واللذة والحبور لايستطيع من وصل إليها وانتهى إلى حد من حدودها أن يكتم أمرها أو يخفض سرها ؛ بل يعتريه من الطرب والنشاط والمرح والانبساط مايحمله على البوح بها بجملة دون تفصيل . ولقد اكتفى الغزالى عند وصوله إلى هذه الحال بالتمثل بهذا البيت :

فكان ماكان مما لست أذكره فظن خيراً ولا تسأل عن الخبر

ووقف غيره ممن أدَّبتهم المعارف ، وحذقتهم العلوم عند حد. أما البعض فقالوا فيها بغير تحصيل مقالات أخذوا بها . ومعظم الأشعار فى وصف هذه الحال فيها جماح واجتراء . والمتصوفة أنفسهم يعرفونها بالشطحات . ونجتزئ هنا بترجمة مقطوعة من ديوان المثنوى لجلال الدين رومى يصور فيهامعنى التوحيد،على حد ماذهب إليه البعض من أن لفظ « أنا » غير جائز لغير الله لأنه وحده الموجود بذاته ولا جود إلا به :

«طرق أحدهم باب المحبوب. فهتف به من البيت هاتف : « من الطارق ؟ » فأجاب : « أنا » فقال الهاتف : « لايتسع هذا البيت

لى ولك ». فانطلق المحب إلى الخلاء واختلى بنفسه صائماً مصلياً . ثم عاد بعد عام وطرق الباب مرة أخرى، فهتف الهاتف كذلك : « من الطارق ؟ » فقال المحب : « انت » ، وعندها فتح الباب .

وهذا الشوق من المحب للفناء فى المحبوب له أيضا نصيب من الشوق إلى المعرفة . فإن الباحث فى رأى الغزالى إذا اعتمد على المحسوسات لم يلبث أن يداخله الشك فيها ، فإنه لينظر مثلا إلى الكوكب فيراه صغيراً ، وتدل الأدلة الهندسية على أنه أكبر من الأرض فى المقدار . فإن هو عول على المعقولات فما يدريه ؟ لعل وراء إدراك العقل حاكما آخر إذا تجلى يكذب العقل فى حكمه، كما تجلى حاكم العقل فكذب الحس فى حكمه. وعدم تجلى ذلك الإدراك له لايدل على استحالته . وعلى هذا يكون جميع ماتعتقده فى يقظتك بحس أو عقل إنما هو حق بالإضافة إلى حالتك . ويمكن أن تطرأ عليك حالة أخرى تكون نسبتها إلى يقظتك كنسبة يقظتك إلى منامك ، فإذا أوردت تلك الحالة تيقنت أن جميع ما توهمت بعقلك خيالات لاحاصل لها . ولعل تلك الحالة هى ماتذهب الصوفية إلى إنها حالتهم إذا غاصوا فى أنفسهم ، وغابوا عن الحسيات والعقليات ، وتوصلوا من طريق التواجد ثم الوجد إلى تحقيق وجودهم بالفناء فى الحق سبحانه ؛ فإن هذا الذى فاتهم إدراكه

بظاهر الحس و برهان العقل تحصل لهم معرفته بالملابسة والذوق .

هذه هى الصوفية بوجه عام . وقد تعمق شاعرنا الألمانى جوته فى دراستها فيما درسه من الشعر الفارسى .

والشعر الفارسى تغلب عليه الروح الصوفية فى جملته . ومهما يكن من تفاوت شعرائهم فى ذلك ، فلابد أن نستبعد من هذا المجال علما من أعلامهم وهو أبو القاسم الفردوسى (٣٢٩ - ٤١١ بالتاريخ الهجرى - القرن العاشر الميلادى) . ولا غرو ، فهو صاحب ملحمة الشاهنامه التى تزيد أبياتها على الخمسين ألف ، والتى تناول فيها قصص ملوك الفرس المجوس الأقدمين ، وكانت قد جمعت نثراً فى لغتها الأصلية الفهلوية وهى الفارسية القديمة فتعرض الشعراء لنظمها فى الفارسية الحديثة . وممن سبقوا إلى ذلك « أبو منصور محمد بن أحمد الدقيقى » الشاعر الذى نظمها امتثالا لأمر الملك نوح ابن منصور السامانى « ٣٦٥ — ٣٨٧ هـ » . وكان آل سامان الذين استقلوا بخراسان ينسبون أصلهم العجمى إلى « بهرام جوبين » القائد الفارسى الذى ثار على كسرون برويز ، وكانوا فى عصبيتهم يعملون على إحياء تواريخهم القديمة ، ويشجعون الشعراء على النظم بالفارسية ، ولقد نظم الدقيقى الشاعر من شاهنامته نحو الألف بيت ، ثم انتهى عمره على يد عبد من عبيده اغتاله ايلا . فتطلع

إلى الاضطلاع بهذا العمل العظيم « أبو القاسم » الذى يروى ذلك فى مقدمة شاهنامته فيقول : (فلما يئس قلبى من الدقيقى ، توجهت تلقاء ملك العالم ، لعلى أظفر بهذا الكتاب — قصص ملوك الفرس — فأنظمه . سألت أناساً لايحصيهم العد ، وأنا أوجس خيفة من تقلبات الزمان ، وأخشى أن لا تمتد بى الحياة فأتركه لغيرى . وكان فى المدينة صديق لى كأنى وإياه نفس واحدة فقال : « أنا كفيل بهذا الكتاب الفهلوى فلعلك لا تنام عنه » . وأحضر إلى الكتاب، وقال :« إذا يسر الله لك نظم كتاب الملوك فأهده إلى الملوك » . وكان محمود الغزنوى الذى ولى « خراسان » من قبل السامانيين قد استقل بها عام ٣٨٤ﻫ وكان شديد الاهتمام بنظم كتاب الملوك ، فشخص أبو القاسم من بلده طوس إلى غزنه ، وأبلغ مانظم إلى السلطان وهو قصة «رستم وسهراب» فلماعرضت على من كان حاضراً بمجلسه من الشعراء تحيروا من بلاغة نظمها ، فعهد إليه السلطان بإنجاز نظم الكتاب كله ، فنظمه فى البحر المتقارب . وكان كلما سمع شعره يردد قوله « سمعت هذه القصص مراراً ، ولكن نظم الفردوسى شىء آخر » حتى زعم الزاعمون أنه قال له مرة « إنك صيرت مجلسنا فردوساً » ولقبّه منذ ذلك الحين بالفردوسى .

وبديهى أن لا يطلب شاعرنا « جوته » الصوفية فى قصائد المديح التى كان « الأنورى » يصوغ قلائدها للسلطان سنجر ملك خراسان وغيره ممن كان يتعلق بأذيالهم من الكبراء . ويخلبهم بسحر الملق والثناء ، كما كان طبيعيا أن لا يلتمس مجانيها النورانية عند صاحب « حديقة الورد » بقطوفها الدانية « سعد الدين الشيرازى » وأمثاله من أصحاب الأمثال الخلقية والحكمة العملية.

وإنما ورد جوته الصوفية فى مناهلها التى استطاع الوقوع عليها عند المتصوفة من شعراء الفرس الذين كثيراً ما كانوا يصطنعون القصص لبيان طريقتهم وتصوير لطائف أحاسيسهم ودقائق مفاهيمهم ، ونذكر منهم « أبو عبد الله الأنصارى » الشاعر فى قصته المنثورة عن يوسف وزليخا ، وشاعر الحب والألم « نظامى الكنجوى » الذى يتابع فى شعره القصصى مجرى المقادير فيما كان بين الأمير الساسانى خسرو برويز والأميرة الأرمنية شيرين ، وما كان فى الرواية العربية بين « ليلى والمجنون » وما دخل بين الإلفين العاشقين من عناد الأسرة وملابسات البيئة ، وحكم العادات ولعب الأهواء ، وصروف الدهر تفرق بينهما ثم تردهما ، ولا يزالان بين فراق ولقاء فى ظروف شائقة عجيبة حتى يحم الفراق الذى ليس بعده تلاق ؛ والشاعر « فريد الدين العطار »

صاحب المثنوية الصوفية « منطق الطير » و « تذكرة الأولياء » وقصة « جل وهرمز » ؛ والشاعر « جلال الدين رومى » الذى نشأ فى قونيه حاضرة دولة الروم السلجوقية وتلقى الصوفية على «الشيخ الدرويش» شمس التبريزى حتى اشتهر ديوانه باسم « ديوان شمس التبريزى » ، وأنشأ بعد موت أستاذه طريقة المولوية ، ونظم آيته الكبرى «المثنوى المعنوى» وهو هنا روح لا تأنس إلى الواقع ، إذ تجد فى كل حدث من أحداثه معضلة ، فتلتمس حل ألغازه ، فتجىء الحلول ألغازا جديدة تحتاج إلى حلول جديدة ، فيلوذ آخر الأمر بمذهب التوحيد المطلق ؛ وأخيرا ذلك الشاعر الناثر الذى جمع الفنون كلها من دينيه وفلسفيه وعلمية فى شعره ونثره « عبدالرحمن الجامى » الذى اتخذ من قصته « ليلى والمجنون » ترجمانا عن آرائه فى التصوف فى كثير من المواقف .

ولكن شاعرنا الألمانى لا يجد صنوه وشقيق روحه إلا فى حافظ الشيرازى « شاعر الغزل » الأكبر الذى جمع فى غزله الحسية الروحية ، وبلغ من نشوة الفرس وطربهم بما نظمه فى الحب والجمال أن لقبوه « لسان الغيب وترجمان الأسرار ».

ملتقى الشرق والغرب

لا الشرق شرق ولا الغرب غرب ، بل هما على البعد يلتقيان ، كلما تلاقت بالفكر العالى والشعور العميق من هنا ومن هناك نفسان عظيمتان ، تطاول ما تطاول بينهما الزمان ، وتدابر ما تدابر بهما المكان .

وليكن فى هذه المرة العظيمان الشقيقان : حافظ الشيرازى أحب شعراء الفرس ، وجوته كبير شعراء الألمان .

ولقد طلع الأخير فى أفق الحياة من ناحية الغرب ، بعد أن غاب زميله فى الشرق بنحو أربعة قرون . وما كاد جوته يحصل فى عام ١٨١٤ على ديوانه الذى كان قد ترجمه بأكمله للألمانية « البارون دى همر Baron von Hammer Pargstall » حتى رأى نفسه مجلوة فى مرآته ، وآنس فيه مشابه جمة من طبيعته وملكاته وحياته .

كلا الرجلين لا دعوى له فى عراقة النسب والشرف الموروث وكلاهما طالب متعة يجمع فيها بين الحس والروح . وكلاهما صاحب أثرة لم يشغل خاطره إلى حد الأعنات والجهد بأحداث عصره وتقلباته .

فهذا شمس الدين محمد ابن رجل من أصفهان نزح إلى شيراز

وأثرى فيها من التجارة ، ولكنه قضى نحبه وأحوال تجارته مضطربة وزوجه وابنه فى إملاق ، حتى اضطر الغلام إلى السعى فى كسب قوته بعرق جبينه . بيد أن الفتى الذكى الفؤاد لم يعدم الوقت والوسيلة للذهاب إلى مكتب من المكاتب المجاورة للتعلم وحفظ القرآن . ومن ثمة تسمى فى أشعاره باسم «حافظ» . ولم يلبث أن عالج قرض الشعر فلم يوفق فى البداية توفيقاً يذكر ، حتى كان فى ذات ليلة - كما تصوره لنا الرواية - يتهجد فى ضريح ولى من أولياء الله قائم على رابية فى سواد شيراز . فإذا بالإمام علىّ يدخل عليه ، ويناوله مطعما لم يذقه قبل من طعام الخلد ، ويقول له: إنه قد أوتى من اليوم موهبة الشعر ومفاتيح العلوم كلها.

واتصل حافظ بكافة الملوك الذين تعاقبوا فى أيامه على ملك شيراز ، على ما كان بينهم من منازعات . فاتصل بالشاه « جمال الدين أبو اسحق » من آل « اينجو » كما اتصل بمن غلبوهم على الملك من آل المظفر مثل « مبارز الدين محمد » وابنه « جلال الدين المعروف بالشاه شجاع » حتى قضى عليهم الغازى التترى الجبار « تيمور » (١) .

---

(١) تيمور معناها فى لغتهم : الحديد ، ويذكر اسمه أحياناً تيمور لنك ومعنى لنك : الأعرج .

وكان الشاعر شديد الحب لشيراز موطنه ، لا يمل التغنى بنهرها السلسال وخمائلها المتضوّعة ، ومن ذلك قوله : « هات أيها الساقى كل ما بقى لديك من راح ، فهيهات أن تجد فى جنة الخلد مراشف سلسبيل مثل نهر ركناباد أو خمائل ورد مثل محلة المصلّى » . ولقد توالت عليه الدعوات من والى بغداد وملوك الهند يستقدمونه بعد أن جابت أشعاره إليهم الآفاق ، ووقعت من نفوسهم موقع النفائس والأعلاق . ولم يكن الشاعر فى هذه الأثناء جميعاً بالمطمئن إلى ما هو فيه ، أو بالجاهل ما هو ملاقيه عندهم لو قد لبى الدعوة وأنفذ الزيارة . ولكنه لا يطيق فراق شيراز . فهو يزجى إليهم المعاذير فى أرق الشعر ، مستعفياً من أول الأمر دون أدنى روية وإعمال فكر . ولقد هم مرة ولكنه عدل فى النهاية فكانت الأولى التى هم فيها والأخيرة . إن شيراز تقيده إلى تربتها ، ولا تسمح له بالفكاك حيًّا أو ميتاً : « نسيم المصلى ونهر ركناباد يحرمان علىّ المسير والسفر » .

ومع هذا فالمدينة التى كلف بها الشاعر وأشرب قلبه حبها قد حوصرت مرات ، واختلفت عليها أيدى القابضين زرافات ، وضرجها بالدماء فاتح ، وعمرها باللهو والقصف ثان ، وسامها الزهد ثالث . وقد شهد حافظ الأقيال والأمراء واحداً بعد

الآخر ، يرتفعون إلى عقوة الملك ثم يزولون ، وتعاقبت على سمعه وبصره المآسى الفاجعة والأفراح الصاخبة والتماع القنا وأصوات الوغى وقيام دول وانهيار دول ، فأى صدى لهذا فى شعره ؟ لا شيء يذكر إلا أفاويق من المديح المسرف لهذا الملك ثم لذاك والإشادة بمفاخر هذا النصر وسواه ، والتنويه ببسالة هذا القائد وغيره ، كما هو المرتقب من شاعر البلاط الخليق بهذا الاسم .

وكان جل ما يعنيه فى تقلب الملوك على دست الحكم موقفهم من إباحة اللذات أو تحريمها . فإذا غلب منهم على شيراز ذو جهامة وصرامة فأغلق الدساكر ومنع جهد المستطاع شرب الخمر ، سمعت حافظاً ينفث شكاته فى قصائد عدة تتمثل فيها الشاعر يساند نفساً تتساقط حسرات ، ويغالب من سخطه عواصف ثائرات ، فيجتمع من هذه وتلك مزاج بديع من الوجد اللاعج والسخر اللاذع . كما ترى فى قوله : « مهما تكن الراح تورث الأفراح والنسيم يستقطر شذا النسرين ، فإياك وشرب العقار على نغم الأوتار ، فإن المحتسب قائم لك بالمرصاد . خبئ الكأس فى أردان عباءتك المتقشفة المرقعة ؛ فإن زماننا كعين الإبريق يسكب دماً . واغسل خرقة الدرويش التى أنت لابسها بالدمع من بقع الخمر . فهذا موسم الورع وأوان الزهد » . ثم قوله ينعى ابنة الكرم

ويندبها ندب الثاكل اللاهف : « يا ليت أنهم يفضون الأغلاق عن الحان ، فإذا أمورنا المعقدة قد انحلت وصرنا فى أمان ! ألا جزّوا شعور الأوتار حداداً على الصرف العقار ! وسطروا الكتب تعزية فى ابنة العنب . وليذرف عليها الندمان من جفونهم دماً . هم أوصدوا الأبواب على بيوت الصهباء . فاللهم نعوذ بك أن يفتحوها على التزوير والرياء » .

فلما أن تغير العهد ، وتبدلت الحال غير الحال بولاية الشاه شجاع وعاد اللهو إلى مجراه وفتحت الحانات الأبواب وازدهرت مجالس الشراب ؛ احتفل بها حافظ متهللا :

(طرقت مسمعى سحراً بشرى من هاتف الغيب : « هذا دور الشاه شجاع . فاشرب الراح شجاعاً » . لقد غبر العهد الذى كان فيه أهل النظر يفترقون ، وعلى ألسنتهم كلام كثير فلا تنبس بالكلمة الواحدة لهم شفة . لسوف ننشد هذه القصة على نغم الأوتار ، فتجيش لسماعها مراجل صدورنا . ولكن ، مالنا وذاك . إن الملوك أدرى بشئون الملك . وأنت الفقير العاكف يا حافظ ، فأمسك عن الكلام وعش بسلام) .

وفى مقطوعة أخرى :

« قسما بما للشاة شجاع من أبهة وسلطان وجلال . ما أنازع

أحداً على جاه ولا مال ، ولكن ألا ترى لهذا الراقص اليوم على نغم الأوتار . وكان بالأمس يحرم السماع على الندمان والسمار ! » .

ويندفع الشاعر وقد أخذته هزة الطرب فى نشوتين من سكر وفرح ، شامتا ساخراً ، ومسبحاً شاكراً فى منظومة فريدة : (هلل العود : « أين المعترض المنكر ؟ » . وقهقهت الكأس : « أين المانع الناهى ؟ » . ألا فاطلبوا طول العمر للشاه ، إن كان طيب الحياة مطلبكم . هو رب الجود والعطاء والكريم ذو الأيادى البيضاء ، مظهر لطف الأزل ، ونور عين الأمل ، جامع العلم والعمل ، حياة الوجود : الشاه شجاع) .

وفى هذه المقاطيع التى أوردناها ما يكفى لتعريف القارئ خصائص شعر حافظ . فهو جميل السبك مصقول الحواشى بليغ الإيجاز متألق الوشى براق يبهر الأبصار ، رخيم اللفظ منغوم النظم يسحر الأسماع ، حلو الإشارة لطيف الحس يفعل بالألباب فعل السحر .

ولا نحب أن نقف بالقارئ عند الصورة التى رسمناها لحافظ فى شبابه من حيث استجابته للمرح والطرب ، فنستدرك عليها حرصاً على استكمالها بالتنبيه، إلى أنه كان شديد الولع بالدرس والتحصيل . فهو إلى جانب حفظه القرآن عن ظهر قلب قد تضلع من علوم

الدين واللغة ، وقرأ على أكبر المشايخ : الكشاف للزمخشرى ، ومطالع الأنوار للبيضاوى ، ومفتاح العلوم للسكاكى ، والمصباح وغيرها . فضلا عن كتب الشعر وفصول الأدب وأصول النقد ، حتى ليقول عن نفسه : « لم يجتمع لحافظ من الحفاظ مثل ما اجتمع لى مع القرآن من لطائف الحكماء » . وكان شاعرنا الفارسى يجيد العربية كما تشهد قصائده باللغتين . وقد خلف أشعاراً جمعت بعد وفاته فى ديوان كبير بينها المزدوج والمقطعات والقصائد والرباعيات ، وذلك الضرب من النظم الذى يسمونه الغزل أخص ما حذقه حافظ .

ومع أن أشعاره فى معظمها تدور حول الربيع والورد والبلبل والخمر والصبا والجمال ، فإن الشراح من المتصوفة وغيرهم يذهبون إلى أن هذا الظاهر من الصور الجميلة وراءه معان باطنة عميقة الروحانية . وللشاعر فى حقيقة الأمر نفس تصوفية ، ونزوع إلى النظر فيما وراء التعاليم الخارجية . وهو يطالع فى عالم الشهادة المعانى الغيبية ، ويستجلى الله ذا الجلال فى كل شىء . وهو يقول إن العبادة بالقلب خير وأولى من مجرد القيام بالفرائض العملية وترديد الذكر على طرف اللسان . ومن ثمة كان دائم الوقوع فى شيوخ الدين والمتصوفة الزاهدين ؛ يتهم ظاهرهم ،

ويكشف وراء العبادات والمراسم عن زيفهم ، ويغمزهم فى صحة العقيدة وصدق النية . ونجتزىء على سبيل المثـــال بقوله : « فى طريق الخمارة الليلة البارحة ، حملوا على أكتافهم إمام المدينة مخموراً . وأما الإمام فكان يحمل على كتفه سجادة الصلاة ! » .

والواقع أن هؤلاء الممخرقين كان لهم فى الدولة شأن خطير ، حتى أنه كان من دواعى النبوة بين الشاه شجاع وبين حافظ استخفاف الأخير بفقيه كرمان ، وكان هذا قد علم قطة كانت له أن تأتم به وتحاكيه قياماً وركوعاً عند الصلاة . فرأى الأمير فى ذلك كرامة من كرامات الأولياء ، ورآها الشاعر مخرقة من خدع الدجاجلة .

وجعل الشاه الناقم ـ وهو فى نفس الوقت شاعر منافس ـ يقدح فى شعر حافظ لاختلاف بواعثه فهو آونة تصوف وأخرى تعشق وسكر ، وهو طوراً وعظ وروحانية ، وتارة ذلاقة واهتمام بحطام الدنيا . فقال حافظ لمن حوله : « فليكن ما يقال حقاً ، إلا أن الخلق أجمعين على الرغم من ذلك جميعه ليحفظون أشعارى ويلهجون بها ويكثرون من ترديدها ، أما البعض ممن لا أستطيع ذكر اسمه ، فأشعاره لا تجتاز أبواب المدينة » . فكان من شأن هذا التعريض أن أحفظ الشاه فوق حفيظته ، فانتهز للشاعر بيتاً من الشعر يوقعه فى قبضة يده ، فكان هذا البيت قوله :

« إذا كان الإسلام ما يعتنقه حافظ ، فواضيعتاه للشاعر لو صح أن بعد اليوم يوماً آخرا ».

ونبه بعضهم حافظاً إلى النية المبيتة على تكفيره استناداً على هذا البيت . فبادر مضطرباً جزعاً يستفتى ، فأشير عليه بأن يضيف بيتاً آخر يفهم منه أن الكلام المتقدم جرى على لسان آخر فتنتفى التهمة وينجو الشاعر ، على مبدأ « ناقل الكفر ليس بكافر » . وبالفعل أردف حافظ بالبيت السابق البيت اللاحق .

« فياله قول هزل سمعته سحراً ، من كافر يترنم على الدف والناى على باب الحانة » . وأبرز حافظ هذا البيت مع البيت الأول حين جابهوه بالتكفير ، فسقطت عنه التهمة ، وسلم من التنكيل ، على أن شبح التكفير لم يزل فى أعقابه حتى وافته المنية ، فلم يسمحوا بأن تقام صلاة الجنازة على رفاته ، بحجة أن له أشعاراً يرى مشايخ المسلمين تفسيقها ومخالفتها للدين . وانبرى أنصاره بطبيعة الحال ينضحون عنه ويدفعون . وأخيراً استقر الرأى على الاستخارة من أشعاره . فاتفق لهم قوله : « لا تقعد عن تشييع نعش حافظ ، فإنه على إمعانه فى الغواية صائر إلى الجنة » .

وعندئذ أقيمت الصلاة ، ودفن الشاعر على مقربة من شيراز

فى ظل شجرة سرو من غرس الشاعر نفسه ، وحول الضريح بستان يزدهى بالرياحين ، ويشقه طريق يقوم على حفافيه السرو القديم .

وكان أول من اتصل بهم حافظ من الولاة هو - كما قدمنا - الشاه « جمال الدين أبو إسحق » والى إقليم فارس . وكان شاعراً وصديقاً للشعراء ، ومستهتراً مستهلكا فى حب اللذات . وكانت أيامه زواهر ، ولكن خاتم ملكه الفيروزى - على حد قول حافظ - قد سطع فى أبهى سناه ولم يطل مداه . ذلك أن خاتم الملك الفيروزى ما لبث أن انتزعه لنفسه « مبارز الدين محمد » من آل المظفر . وفى أواخر أيام حافظ طغى تيمورلنك - فيما طغى عليه من البلدان - على البلاد الفارسية ، كالإعصار الهائل يجتاح كل ما يصادفه ، فخرب الأمصار ، واستباح المدن وعاث فيها وأفسد ، وأوسع أهلها سبياً وتقتيلا ، وأقام من جماجمهم الأهرام والمنائر ولم يرع للخصوم عهداً ، فمن لم يضع فيهم السيف أمر بهم فألقوهم من حالق . وقد دخل شيراز بعدها دخول الظافر القاهر . ويروى الرواة مقابلة جرت بينه وبين حافظ من المرجح أنها أسطورة موضوعة ، ويزعم رواتها أن تيمور أرسل فى طلب حافظ فلما مثل بين يديه عرض له بالنكير لقوله فى بيت من أشعاره :

« ذات دل من جوارى الترك ممشوقة القد ، لو اتخذت قلبى عبداً لها لكنت نعم العبد ، ولبذلت فداء للخال على خدها بخارى وسمرقند »

لهذا صاح به تيمور : « لقد دوخت معظم العالم المعمور بالطعنات النافذة من سيفى الصقيل المطرور ، وتركت الألوف من المدائن والأقطار قاعاً صفصفاً لأزين بأسلابهـــا وغنائمها سمرقند وبخارى ، بلادى وأزهى حواضر ملكى ، فتأتى أنت الصعلوك النكد، لتبذلهما من أجل خال على خد جارية تركية من جوارى شيراز ؟ » فانحنى حافظ حتى مس الأرض وأجاب :

« لقد بهرنى ما للملك العظيم من الأبهة والسرف ، فوقعت فيما وقعت فيه من هرف » .

فسر تيمور من سرعة خاطره وحضور بديهته ، فلم ينزل بالشاعر نقمته ، ووصله بجائزة سنية .

وحسبنا هذه الصورة المجملة لشاعر الشرق نعرضهـا ليتبين المطالع المتأمل أنها تصح فى جملتها صورة لشاعر الغرب .

فقد التحق جوته الشاب ببلاط « ويمار » وهى إمارة صغيرة الرقعة ولكن لها فى تاريخ ألمانيا أكبر الأثر . وقد كان أميرها دون جوته سناً ، جم النشاط متيقظ الحس ، لا يكل من السعى والحركة ، ولا يغفل عن انتهاز الفرص سواء فى اهتمامه بشئون الملك ، أو تفننه فى اللهو وانتهاب اللذة . وكان متحمساً للفنون

والآداب يستقدم أصحابها ، ويوليهم المناصب ويجرى عليهم الرواتب ، ويشعر لهم بالإجلال والكرامة ، حتى اجتمع منهم فى ويمار مالا تفخر بمثيله سائر ألمانيا . ومما يؤثر عن الأمير الفتى أنه أمر فجمعت له مكتبة عن الحب تكلف فى جمع شواردها العناء والنفقة . وهو يقرن إلى ذكاء الفؤاد وشوق المعرفة غرام العواطف الحسية الجامحة ، وكراهة المراسم ، والخشونة فى الطباع والكلام وجفاء المجون والرغبة ، فى اللهو العنيف . وبالجملة كانت له شيمة الجندى تستهوى لبه المخاطر والخمر والنساء . ولقد اتفقت سليقة الأمير وصديقه الشاعر فى عبادتهما للطبيعة وتذوقهما للحياة والأرض . فإذا ويمار تضج فى معظم الأحيان بالأعياد ، ومواكب المساخر ، وحلقات الرقص فى ضوء المشاعل فوق الثلوج ، والصيد والطرد والإجلاب الجموح على صهوات الجياد ، وركوب المزالج على الجليد . وثمة مجالس الشراب ولعب الورق والنرد ، وثمة الجولات المتنكرة والصبوات المتنقلة ومغامرات الليل فى القصور والقرى المجاورة . والأمير والشاعر متلازمان كلاهما عارم الفتوة صلب العود موثق البنية ، يروعك مرآه فى بذلة الركوب وحذائه الطويل الغليظ وقبعة السمور وهو يربت على كلاب الصيد أو يمسح على لبان الفرس . فلا جرم يصدق

عليهما ماكان يقال من أنهما يطويان بياض النهار فى الطرد والقنص ، ثم يعقبان بسواد الليل يزجيانه سكراً ورقصاً ولهواً .

ولقد يجر الأمير المندفع صديقه إلى حد الاستهتار وخلع العذار ، فى مغامرات شائنة مع الإماء والقرويات ، ويجوب معه معربداً فى الأسواق والأعياد العامة ، ويميـــل به إلى إحدى الحانات المنقطعة ينادمان لعوباً من النساء مؤاتية . وكانت ويمار لها مسرحها ، وللمسرح فرقتـــه ، وفى الفرقة ولا شك حسان مؤاتيات ، ويقال إنه كانت للشاعر والأمير مغامرات مع بعضهن .

على أن هذا كله كان يرضى من شاعرنا شياطين حسه ، ولم يكن ينفذ فى قلبه إلى شغاف ولا صميم . فالشاعر لا غنى له عن الحب ، وهو لا يحيا حفل حياته إلا به . ولقد ذاق جوته هذا الحب طوال أيامه المرة بعد الأخرى ، ولولاه ما ارتفع على أنانيته ، ولا سبر غور الألم ، وعرف التضحية ، ولا تخرّج فى الشعر والأدب حكيما ومنشداً . والنساء اللاتى أحبهن فى مراحل عمره يطول بنا إحصاؤهن ، فيكفينا هنا للدلالة على مبلغ دينه لهن ، ومدى استلهامه منهن ، الاستشهاد بقوله : « الأنوثة الأبدية تجذبنا إلى السماء » .

ولقد قضى جوته حياته يطلب المعرفه بحماسة لا تفتر، ونهم لا يشبع ، ولم يقتصر هذا الطلب على ضرب من المعرفة دون الآخر ، بل كانت همته تستجيب لدواعيها بلا استثناء ، ويهفو شوقه إلى أسرارها على السواء ، ويتفتح لها قلبه ويحتضنها جميعا فى محبة واحدة . فلم يكتف بالتخرج على عرائس الشعر والفن ، بل خاض فى العلوم وتوغل فى بحوثها كالتشريح والنبات ونظرية النور والألوان وطبقات الأرض ، يستبطن دخائلها ويستجلى غوامضها . وقد اهتدى فى بعضها إلى حقائق قيمة هادية .

وفى أيام جوته شبت الثورة الفرنسية وهى انتصار مبين للشعب ولحقوق الإنسان . فهلل للعهد الجديد شعراء من سائر الأجناس والملل بحرارة وإيمان ، ومن بينهم شيلر وكلوبستوك وغيرهما من الجرمان . وأما شاعرنا فتنكر لهذا الأفق الملبد بالغيوم المدلهمة والرهج المثار ، والدم المراق . ولقد هب ملوك أوروبا ضد الجمهورية ومبادئها . وفى مقدمتهم صمدت لها شاكية السلاح « بروسيا » ، وحليفها أمير ويمار وفى ركابه جوته . ولكن الشاعر كان يتبع شخص الأمير ، من غير كبير اهتمام بالقضية ، لأنه بطبعه لا تحركه أحداث السياسة وتقلباتها . فهو صاحب نفس مفكرة تبحث فى

نواميس الطبيعة الخالدة ، وتجد فيها ما تجده النفوس الأخرى في طوارىء الساعة من غذاء للحياة وحافز للهمة ، فبينما كانت المدفعية الألمانية تصب نارها على قلعة فردون ، كان الشاعر في في شغل شاغل عنها . وذلك أن بعض الجنود الذين كانوا يصطادون السمك في أحد الغدران لفتوا نظره إلى حطام إناء من الخزف في قاع الماء يشع موضع الكسر فيه عن أعجب إشعاعات الطيف وأجمل ألوان «الموشور» ، وقد بلغ من وقع هذه الظاهرة في نفسه أنها ردته في الحال إلى دراسة البصريات ، وصرفته عن ضرب القنابل ، حتى لتراه في الليل - المحمر الحواشي المهتك الجلباب من مقذوفات النار - يتمشى في هدوء وراء أسوار الحديقة مع أحد العلماء يحدثه عن نظرية الانعكاس . ولم يزل هم الشاعر في حله وترحاله في ميادين الوغى منصرفاً إلى إملاء المذكرات في البصريات على كاتبه ، وظل إلى ما بعدها حريصاً على هذه المذكرات يزهو بما علق بها من آثار المطر والوحل كشاهد صدق على غيرته في البحث ونبالة المقصد .

وبعد سقوط فردون دارت المعركة عند فالمى . وطاف القائد الفرنسي بالصفوف الأولى رافعاً على شباة سيفه قبعته وعليها الشارة المثلثة الألوان ، وهتف « لتحيا الأمة » . فارتفع

هتاف هؤلاء المجندين قاصفاً يصم الآذان . وثارت نخوتهم ودفعوا العدو بأسنة بنادقهم المشرعة ، وانهزم فرسان ملك بروسيا الكماة المجربون أمام من يسمونهم « اسكافية » الجمهورية . ولقد دام قصف المدافع حتى الليل . وكلما مال ميزان النهار تضاعف إطلاق النار . حتى زلزلت الأرض زلزالها ، وذهلت العقول عن التفكير فى المصير . وفى هذه الساعة العصيبة خطر للشاعر أن يمتحن رباطة جأشه وامتلاكه لأعصابه . فقد سمع أنه فى مثل هذا الوطيس يجن جنون المرء وتأخذه « حمى المدفع » فأراد أن يعجم قوة نفسه ، ويبلو جلده كشأنه وهو فى ستراسبورج إذ كان يصعد فى كنيستها إلى الذؤابة من برج الأجراس يصابر الدوار ويغالبه . وهذا هو اليوم يدفع بجواده إلى المنطقة التى تصطلى نيران المدافع حيث تنهال المرامى هنا وهناك بين الخرائب فتتشظى الحجارة ، وتتناثر الأعواد والأعشاب ، وهو مسترسل يراعى فى سكينة هذا الحاصب من القذائف المتطايرة يطوقه ويغوص حوله فى الأرض الغريقة المتحللة ، وقد اشتمله حر كحر التنور ، ولكنه آنس فى عزة المطمئن أن نبضه على حالته من الهدوء .

وما برح العنف يستدعى العنف ، وجوته يزداد كل يوم كراهة للثورة الفرنسية فى عنفها دون أشخاصها ؛ لأن الرجل فى كتابه

عن معارك فرنسا قلما يبخس أبناء الثورة نصيبهم الأوفى من التفانى فى البسالة ومن حماسة الإيمان فيما عرض لوصفه من الهزائم والانتصارات على السواء. ولكنه كان يقول بالتطور تفادياً من قلاقل الفتن والثورات الدامية. وكان ذلك طبعا فيه حتى ليقول فى نهاية هذه الفترة:

« إن افتقادى لاستقرار الحياة وتقلب أهواء السياسة بالناس حبَّباً إلىّ عقردارى، وبودى هنا لو خططت حولى دائرة لا يتطرق إليها طارق غير الصداقة والفن والعلم ».

وهنئ الشاعر رَدَحاً طويلا من الزمن بالراحة المشتهاة بين أشعاره وبحوثه ومقتنياته وبين منظومة زاهرة من أصدقائه. وفى مقدمتهم الشاعر شلر وقد أحس إلى جانبه بتجديد حياته.

ثم عاد جو أوروبا إلى الاكفهرار. وأعلنت بروسيا الحرب على نابليون. وامتطى أمير ويمار الركاب مع حليفته ولكن سرعان ما اندحرت الجيوش الألمانية أمام نابليون وقد أثخن فيها ومزقها شر ممزق. وانثالت الفلول المكسورة إلى مدينة ويمار، فما عتمت أن دوت المدافع بقربها، وتطاير الرصاص يصفر فوق دار جوته، وهو يسمع إلى أصوات الهاربين من وجه العدو، ويلمح أطراف أسنتهم فوق أسوار الحديقة. زحام

فاجع تتدافع فيه المناكب ، وتتعثر الأقدام ، ويختلط فيه الحابل والنابل والناس والخيل ، وتتسابق المركبات متصادمة عند المنافذ ومفارق الطرق. وأينما أدار شاعرنا الطرف فثمة قوائم مدفع مهجورة وعجلات مهشمة وجرحى هائمون . والعباب الآدمي الوافد يطم ويربو كل لحظة ميمماً فى هربه إلى غربى ويمار . وبعد هنيهة تبدو طلائع الفرسان الفرنسيين شاهرين سيوفهم ، وسبائب خوذاتهم مرسلة للريح ، وهم وقوف فى ركابهم ناصبو الصدور على صهوات جيادهم الراكضة منتفخة الخياشيم مزبدة اللغام ، وكأنهم وهم يركضونها فى حللهم العسكرية الحمراء شياطين انطلقت على الدنيا . وكان من أمر شاعرنا المستشار أن أمر لهم بالجعة والنبيذ وعهد بذلك إلى نجله وكاتبه الخاص . وقد التمس جوته التشرف بنزول المـارشال « ناى » فى ضيافته ، وقامت قعيدة داره كرستيان - ولم يكن عقد زواجه عليها بعد - تخدمهما على المائدة ، إلا أنها كانت أكثر استئناساً بالضباط وإن تعرضت أحياناً لسوء مجونهم . وقد رأى «جوته» فى هذه الآونة إجراء العقد عليها وإشهار الزواج بهـــا .

وبعد شهور جرت المقـابلة المشهورة بين الأمبراطور

والشاعر . ومقابلة الأمبراطور تجرى عادة فى الصباح أثناء طعام الفطور. وكان النزل فى حركة مستمرة ، والأروقة والدهاليز غاصة بالقـــواد وأركان الحرب ، والحلل المقصبة تتعاقب على العين فى جيئة وذهوب ، وسيوف الاحتفال مجرجرة تصل على الدَرَج . وأقبل جوته فى حلة الديوان منسق الهندام مرجل الشعر . فطلب إليه الانتظار حاجب بدين ، وفى رواق الانتظار تعرف إلى بعض القادة الكبار . وانفتح الباب ، ودعى الجمع كله ، ودعى جوته للدخول . فولج إلى القاعة الفسيحة ، وفى بهرتها منضدة ضخمة مستديرة يجلس إليها رجل ربعة ممتلىء له جبين مقبب انحسر عنه الشعر ، يتناول إفطاره فى صحاف الفضة ، ويبدو فى الأربعين من عمره . هذا هو الأمبراطور . وكان واقفا على يمينه « تاليران » وأدنى منه على يساره « دارو » والحديث دائر فى شئون المال وخراج الحرب . ووقع نظر نابليون على الشاعر فأومأ إليه بالدنو . فاقترب إلى مسافة لائقة ، فحدد إليه الطرف ملياً يتوسم ثم قال :

— إنك لرجل حقاً .

فانحنى الشاعر ، واستأنف الأمبراطور :

— وكم سنك ؟

— ستون يا مولاى .

— إنك لمدخر العافية .

ومضى يقول إنه يعرف له المكانة الأولى بين شعراء المأساة الألمان . ثم عرج على رواية « فرتر » فذكر أنه طالعها سبع مرات واصطحبها معه إلى مصر فى حملته الغابرة ، وأنه يعرفها حق المعرفة ، وأبدى عليها بعض الملاحظات . وامتد الحديث بينهما واستفاض ، وكان نابليون طوال هذه الأثناء ظاهر الصفاء والإيناس يبدى استحسانه بإيماءة يشفعها فى لهجة قاطعة بقوله : « هذا حسن » . وهو ناشط الحركة ناطق الأسارير . وكان يردد أحياناً لنفسه بصوت مسموع أجوبة الشاعر الألمانى ليتفهم معناها جيداً من خلال كلامه بالفرنسية المقلقلة ، كما كان أحياناً إذا أدلى برأيه فى نقطة بعد المذاكرة يقبل فى بشاشة على الشاعر متسائلا : « ما ظن المسيو جوته فى هذا ؟ » .

وحين انتهت المقابلة انحنى الشاعر مستأذناً . فلما انصرف التفت الإمبراطور إلى من حوله راضياً وقال : « هاكم رجلا »

واطردت الأحوال على أحسن منوال إلى أن غضب نابليون على قيصر روسيا وتوغل فى بلاده ليعاقبه على حد قوله . ومضى يتنقل من نصر إلى نصر حتى موسكو . فأحرقها الروس . وحل

الشتاء داهما مبكراً فارتد نابليون أمام روسيا المتلفعة بالثلج والجليد . وفتك الزمهرير بالجند الإمبراطورى فتكه الذريع . فكانت الجثث تتساقط كأنها معـــالم طريق فى كل مرحلة من مراحل القهقرى . وإذا الجيش العرمرم الذى كان يسد الأفق لا يزيد حين معاده على قبضة من الرجال ، وتألبت على النسر المهيض الملوك والشعوب التى سادها ، وانقلبوا عليه بعد إذ كانوا فى ركابه . فإذا أوروبا التى كانت معه ، تقوم اليوم مع روسيا فى وجهه .

وتحين الفرصة لخلاص ويمار من الحكم الفرنسى . ولـكن الشاعر يشفق من ذلك . فهو معجب بنابليون وهذا به معجب . كما أنه يأنس انحدار نجمه فى نظر الألمان وانقطاع أسباب التعاطف معهم بعد مؤلفات صباه ، بمقدار ما كانت تسطع شهرته وتتألف القلوب حول أدبه خارج ألمانيا فى فرنسا وإنجلترا وإيطاليا . وبالجملة كان من ناحية لا يطمئن إلى الانتقاض على نابليون « بطل الأقدار » كما يصفه ، حتى قال يوماً لدعاة الاستقلال : « إنما تقعقعون بسلاسلكم ، فالرجل كبير عليكم ، وقصارى أمركم أن تزيد السلاسل حزاً فى لحومكم »

وكان من ناحية أخرى يسوؤه أن يرى إمارة « ويمار » تجلو

عنها سيادة باريس لتخلفها سيادة برلين . فهو يمقت البروسيين أشد المقت لانطباعهم بطابع الثكنة والروح العسكرية وغلوائهم فى الدعاوى الحربية .

وهذه هى بروسيا فى طليعة الخارجين ، تنضم فيالقها إلى الكراديس من القوزاق الروس . ثم تأتى لنجدتهم كتائب النمسا إذ ينحاز إمبراطورها إلى أعداء صهره ، ويمهر بإمضائه عهد التحالف معهم . لقد اتسعت رقعة الوغى ، ونشبت معركة الأمم ، فهى جميعاً إلب واحد على نابليون .

وتبدلت الحال فى ويمار المدينة الزاهرة بالآداب والفنون ، فهى تعانى الاحتلال البروسى بما فيه من شدة وتزمت ، وما يستتبعه من تضييق وتسخير وإيواء للجند الجفاة الغلاظ حتى ليقرع أذن المستشار الشاعر على درج قصره وفى دهاليزه رنين نعالهم الضخمة الموحلة ، فضلا عن تقاطر الجرحى والمرضى وتفشى الأوبئة والحميات .

أيام كئيبة حقاً يطيش لها عقل الحليم إلا جوته ، فإنه يعتصم دائماً من ذاك بالهرب من الحاضر : « لم يبلغ بى الهرم أن أشغل بالى ، وأقلق خاطرى بتاريخ العالم فهو أسخف شىء . فليهلك هذا أو ذاك ، ولتندثر هذه الأمة أو تلك فكله سواء » .

وزاد اعتزال الشاعر لما حوله وأبعد بفكره أميالا بعد أميال ، وارتفع أطباقاً فوق أطباق ، وتخلص من قيود الزمان والمكان وانفتحت له من خلال ديوان حافظ الشيرازى أبواب الشرق مهد الإنسانية بما فيه من أوضاع للشعر والاجتماع والأخلاق والدين تختلف عما يعهده . تخلص جوته من هذه وتلك إلى صميم الحياة ، إلى الوحدة والبساطة . فكل شيء فى كنهه بسيط وغاية فى البساطة ، والأشياء كلها سواء ودائماً سواء ، وما التعدد والتعقد إلا أطوار وأحوال .

وكانت أشعار حافظ تكشف لجوته عن حياة تمت إلى حياته بأقرب وشائج القربى ، حياة عاشها هو أيضاً ، حياة نفس تطالع الوجود فى ذاته بمنتهى الحرية واللذة ، ولا تقطع ما بينها وبين الأرض ، وتواجه الجمود والتعصب بالتصوف الحى والإحساس بالشمول . لكأنما هى حياة «جوته» هذه التى يحكيها حافظ . الممالك تنهار ويقوم الغاصبون فى إثر الغاصبين . فلا تسمع منهما غير الغناء بنجوى نفوسهما وأشجانها الحلوة وأسرارها الخالدة . وكلاهما يقف وجهاً لوجه أمام قاهر طاغية : هذا أمام تيمورلنك ، وهذا أمام نابليون فلا تنخذل عبقرية الأدب فى وجه عبقرية الحرب . إن «جوته» لمأخوذ بهذه المشابهة يهتز لها من فرعه إلى

قدمه ، فهو يعلم ما لهذه اللحظة من خطر . فإنما يتصل هذان العالمان باتصال نفسين كبيرتين من الجانبين . وهذا هو جوته يحس فى لقاء حافظ بالشرق والغرب يلتقيان فيه وتضمهما دفتا كتاب واحد يخرجه للناس : « الديوان الشرقى للمؤلف الغربى ».

الهجرة العظمى
من جحيم الغرب إلى جنة الشرق

كانت أوربا فى تلك الحقبة المضطربة على هذه الحال المضطربة تتزلزل تحت أقدام الجيوش من سائر الأجناس ، ويصطبغ أديمها بدماء الألوف من القتلى والجرحى ، ويمزق فضاءها قصف المدافع ، ويطبق على آفاقها مثل نار الجحيم ودخانها .

من هذا الجحيم المضطرم فى الغرب أزمع الشاعر الهجرة . لقد ترك « ويمار » إلى الجنوب المشمس المشرق تارة فى « بوهيميا » وفى منطقة حوض الرين الجنوبى تارة أخرى . وزاد عكوفه على قراءة كتب الرحــــلات إلى الشرق ومطالعته للشعر الشرقى وخاصة شعر حافظ الشيرازى .

أما اليوم وقد غامت أوروبا واكفهرت سماؤها وادلهمت آفاقها بالسحب المتوعدة تقصف رواعدها وتتهاوى صواعقها ، فقد زاد إقباله بكل جوارحه وقوى نفسه وخياله على الشرق حتى أظله واشتمله ، وأحاط به واحتواه ، وصار له موطناً وبيئة .

إنه اليوم يحس من نفسه كأنه ابن الشرق من فرعه إلى أخمص قدمه ، رافلا فى الجبة الفضفاضة ، متوجاً بالعمامة، الفخمة ، متمشياً مشيته الحالمة فى فضاء ساحر مشرق ، بين النخيل بمشوقة الشطاط ، على ضفتى دجلة والفرات ، ينطق بالحكمة وينشد الأشعار ، بل هو بعبارة أصح كأنه شيخه الفارسى حافظ الشيرازى بذاته وسمته وفى مقامه الأثير من جنات المصلى ونهر ركناباد ، غافل إلا عن نفسه ، مستغرق فى إحساسه وحسه، نشوان يترنم بمنظوم الغزل .

وهكذا طابت لشاعر الغرب هجرته الروحية العظمى إلى الشرق . وها هوذا يتغنى بنشيد « الهجرة » .

« الشمال والغرب والجنوب ، أقطارها تتناثر بددا ، وعروشها وممالكها تنهار . فهاجرْ وامض إلى الشرق الطهور تستروح الطيب من الآباء الأوائل الطيبين ، وبالحب والنشوة والغناء يردُّ عليك « الخِضْر » القائم على عين الحياة ريعان صباك .

« هناك فى ظل النقاء والصدق تطيب لى الرُّجعى إلى نشأة الأنسانية الأولى، إلى الأزمان التى تلقى فيها بنو الإنسان كلمة الحق منزلة من الله بلسان أهل الأرض ، فلم يقدحوا فكراً ولم يكدوا ذهناً - إلى تلك الأزمان التى كانوا فيها يبجلون السلف ، وينهون عن كل دين غير دينهم .

« أريد التملى من عصور الفطرة بأفقها الممدود المحدود : إيمان واسع وفكر قانع لهمامن الشأن ماللكلمة فإنها كلمة منزلة .

« أريد معاشرة الرعاة فى المنتجعات ، والاسترواح فى ظلال الواحات والارتحال مع القوافل متجرا فى الشيلان والبن والمسك ، طارقاً كل درب من البوادى إلى الحضر .

« وسيان أنجدت أو أتهمت ، فأن أغانيك ياحافظ تؤنسنى فى وعثاء السفر ، إذ يترنم المرشد بها على ظهر برذونه مأخوذاً طرباً وكأنما يوقظ بها النجوم الوسنى ويرهب قطاع الطريق .

« هناك فى الشرق فى ردهات حماماته وبين جدران حاناته ، أريد أن أذكرك يامولاى حافظ وقد رفعت حبيبتى خمارها ، وتضوع الطيب من غدائرها المهدلة المضمخة بالعنبر .

« وليعلم الذين ينفسون على الشاعر هذه النعمة والذين تطوع لهم نفوسهم تنغيصها ، أن كلمات الشاعر لاتبرح حائمة حول جنة الخلد طارقة فى لطف أبوابها تطلب الخلود »

وإذن فقد انصرف خيال « جوته » بكليته إلى دنيا الشرق الساحر كما تمثله من مطالعاته ، وبخاصة فى شعر حافظ فهو منه فى جو تشيع فيه اللذة وتشب ألوان الحياة . إنه جو تلطف حواشى نهاره بأنداء النوافير الفوارة ، وتترددفى لياليه المقمرة أصداء المعازف وتلاحين

القيان ، وفى المقاصير من قصوره تتخايل الجوارى فى برود الخز الفاخرة ومطارف الوشى الخسروانى ، ويخطف الأبصار سنا الجواهر وبريق الحلى ، وتفغم الحواس بجامر البخور وسطعات المسك وعبير الورد .

ولقد ملك هذا السحر على الشاعر لبه ، وحق له أن يملكه . ولكن المغلوب على أمره لاقدرة له ولاخير يرجى منه . وما من سبيل للشاعر إلى الغلبة إلا أن يملك هو السحر بدوره ، ويقوى عليه فيقيده بالعبارة ويخضعه للفظ .

وهاهو ذا شاعرنا يعالج الغلبة ،وقد واتته بعض منظومات فى شتى الأغراض بما استوحى وحيه من الأدب الفارسى. ولكنه كدأبه لا ينشط للإنتاج الأدبى نشاطه العجيب إلا أن يساعفه الحب ويخف إلى نجدته . فإنه على كل طاقته وبأسه ، لايستطيع شيئاً بغير هذا السند. فليس هو بصاحب السلطان على ملكاته ،فقد ترين عليه فترات من الخمود يطول أمدها أحياناً حتى لتحسب أن الفنان فيها نضب معينه وصوّح ربيعه . ثم على حين غرة تدر أفاويقه وتزدهر أفانينه تحت تأثير حب جديد شديد . ولذلك تتوافى أبدا فوّارات عبقريته على موعد من مواقف غرامه وعهود محبته .

واليوم هو فى الشرق يتغنى الشباب فيه والشيوخ بأحاديث العشق

وتتردد على ألسنتهم أسماء أزواج من العشاق أصبحوا على صدق الهوى أعلاماً مرفوعة وأمثالا مضروبة تسير بذكرهم الركبان وتستفيض أخبارهم فى كل أفق وفى كل زمان : المجنون وليلى - جميل وبثينة - خسرو وشيرين - سليمان وملكة سبأ فاتنته السمراء - يوسف وزليخا .

فمن له هو الآخر بشطره المكمل وإلفه؟ أين تكون زليخاه؟ .

فى طلب النور والحب

في شهر يوليو من عام ١٨١٤ ارتحل جوته من « ويمار » شاخصا إلى الجنوب فى طلب الشمس والدفء والنور، يجددبها شبابه ويحلم فى أحضانها بالحب. وكانت وجهته « ويزبادن Wiesbaden » مدينة العيون الحارة الطبيعية ، وقد طالعه فى صبيحة يوم هجرته « قوس قزح » شاحب غارق فى غمرات الضباب ، فشام فيه المهاجر بشارة الرجاء والسعادة المقبلة ، فنظم فى تحيته المقطوعة الآتية :

«حين اقترن إله الشمس بالسحابة الريّانة ، تولد فى الحال قوس ملون بشتى الألوان . وإنى الساعة ناظر مثل هذا القوس مرتسما فى الضباب ، وهو فى رأى العين أبيض فضىّ اللون ، ولكنه مع هذا قوس الغمام يتمثل فيه قوس الغرام وسهامه .

كذلك أنت أيها الأشيب الصحيح البنية الشديد العنفوان .
لا عليك إن شاب مفرقك ، فإن العشق لا يزال من قسمتك »

وكان قد مضت عليه سنوات عدة لم يعاودفيها هذه الأكناف من «فرانكفورت» مسقط رأسه ومدرج صباه ، فطالعته ـ بعد مروج ويمار الهزيلة ـ ضفاف نهرى «الرين» و «المين» شائقة رائعة تنعكس

على عبابهما عرائش الكرم ومناظر القرى وأبراج الأجراس :

« ما هذا الذى يتراءى هنالك مبرقشاً منمنما وكأنما يصل الربى بالسماء ؟ إن هبوة البكور ترين على الأفق وتغشى على نظرى . أتراها خيام الوزير أقامها لجواريه الحبيبات ؟ أم هى الطنافس الخسروانية الممدودة احتفالا بمهرجان عرسه ؟ ليس فى العيان أجمل منها ياحافظ ، أترى بلدتك شيراز أقبلت بكل ما وصفتَ من ورودها إلى سهول بلادنا القاتمة المدجنة ؟ بل هى أزاهيرنا تتبدى جميعا كأنما تتحدى إله الحرب .

« لا برح العقلاء يغرسون الرياحين لخير الخلق ، ولا برحت الرياحين فى شعاع الشمس متألقة تألقها اليوم فى طريقى »

وكانت الكنائس فى طريقه مدوّية بأصداء الرنين متجاوبة بصلوات الحمد احتفالا بأعياد تحرير ألمانيا ، وقد حفلت المحاريب بجموع الأهلين المتوافدين من كل صوب فى أثواب الأعياد القشيبة

وفى جو الجنوب حيث الرياح الدفئة السافية محملة بالتراب ، ذكر «جوته» شيخه حافظ وحن إلى الحب الأرضى :

« التراب عنصر من العناصر أنت بارع التصرف فيه ياحافظ كلما نظمت النسيب فى معشوقتك . فالتراب على أعتاب دارها أحب إليك من الطنافس المنقوشة بوشى الذهب يتربع عليها ندمان

الشاه أبى اسحق محمود . وإذا الريح السافية حملت من لدى بابها حفنة من تراب فإنها لأطيب عرفاً عندك من المسك وعطر الورد .

« يالتراب ! لقد طال حرمانى منه فى ربوع الشمال الملتحفة أبد الدهر بالضباب. أما هنا فى الجنوب الدفىء فانى ملاقيه موفوراً. غير أن أبواب الحب لما تزل موصدة دونى ، قابعة فى مدارها لا صرير لها .

« إلا أيتها الرياح السوافى . أغيثينى بغيثك ، دعينى أسوف رائحة الأرض الندية . ولا بأس بالرعود كلها ترعد ، وبالسماء تتجاوب أقطارها بالبرق ، فإن الغيث المنهمر لهابط بهذا الغبار المثار على وجه الأرض طينة مخضلّة ، وسرعان ما تنبعث الحياة ويشع روح من التخمر خفيّة السر مباركة الأثر . فإذا كل شىء فى كل ناحية ينتعش ويترعرع ، وإذا كل شىء يخضر وينضر » .

واشتد بالشاعر هذا الشوق إلى التجدد . لقد كان من قبل فى طوره اليونانى يرى الصورة المفرغة والكيان المجبول أبلغ ما فى الوجود . أما اليوم فانه يرى التحيز فى مكان بعينه معناه الجمود فلابد للحى من الممات لتتجدد له الحياة ، ولكى ينبعث أصفى جوهراً وأغنى عنصرا . وما الحياة إلا تطور من حال إلى حال ، سواء فى ذلك حياة الحشرة فى الثرى أو الأجرام فى أجواز الفضاء .

ولقد قرأ فى ديوان حافظ أبياتاً من غزله يتغنى فيها بشوق الفراشة إلى اللهب وراحتها فى الاحتراق به . نخرج منها بمعنى غير شوق المتصوفة إلى الفناء ، لأن صاحبنا حاضر الحس لا يشبع من البقاء على ظهر هذه الغبراء . وهو القائل فى رسالة له إلى صديق : « يقينى أننى كنت حيا مثلما ترانى اليوم ألف مرة قبل هذه المرة ، ولعلى عائد إلى الحياة ألف مرة أخرى بعد هذه المرة » فشوقه إنما هو إلى التجدد الحافل المستمر . وهذا ما يجيش الساعة بنفسه ، أليس هو اليوم غيره بالأمس ؟ ألم يمت جوته اليونانى طاويا حقبة حياة تنيف على خمس وعشرين سنة كانت وقفا على عبادة المثـــال الأغريق . وهل يشوقه اليوم إلا أن يحترق كالفراشة فى لهب عشق جديد ليتم له فى سمته الشرقى انبعاث جديد ؟ إنه ليشرح هذا « الحنين السعيد » فى مقطوعة من أورع الشعر » :

« لا تتحدث بهذا لغير عاقل حكيم ؛ فإن عامة النـاس على السخر والاستهزاء مطبوعون !

ما أسعد الحى يطلب المنية فى اللهب !

« فى ليالى الحب الندية التى أنت فيها تتلقى الحياة وتبذل الحياة تستحوذ عليك عاطفة غريبة ؛ إذ يسطع سنا السراج الساجى

فلا تطيق بعدها البقاء فى الظلمة ويستدرجك شوق جديد إلى قران أسمى وأعلى . ولا يقعدك المدى ، بل تخف مبادراً مفتوناً فإذا أنت يا عاشق النور ، يا صنو الفراشة ، ذائب محترق .

« مت وتحوّل خلقاً جديداً فإنك ـ ما جهلت هذا ـ باق على ظهر الأرض المظلمة ذلك الضيف الكئيب الحزين »

ولقد قدر لشاعرنا أن يستعيد شبابه ويتحول إلى خلق جديد حين لقى « زليخاه » فى الرابع من أغسطس عام ١٨١٤ فى صحبة رجل المال « فون فيلمر Gohann Gakob von Villemer » وكان قد سمع بوجود الشاعر الكهل للمرة الأولى بعد عشرين عاماً فى وادى الرين يلتمس الاستجمام والراحة فى مدينة المياه «ويزبادن»، فذهب مع الفتاة إلى لقياه ، فراقته الفتاة . فلما رد الزيارة أخذ قلبه يعلق بها ويزداد مع الأيام ميلا لها ، لما كانت عليه من التذوق للشعر وعلى الأخص شعره ، فضلا عن حذقها للموسيقى والغناء . وهذه الفتاة هى « الآنسة مريان يونج Marianne Yung » التى أصبحت فيما بعد « السيدة مريان ڤون فيلمر » .

ولقد بلغ حب الشاعر أوجَه عام ١٨١٥ فنظم فيها مجموعة من المقطوعات . وهذه المقطوعات تمتاز على أمثالها من شعر الديوان بما يعتلج فيها من عاطفة شخصية اضطرمت نارها بقلب

الشاعر فجعلتها أشد تأججاً وتوهجاً ، كما اضطرمت مثل هذه النار بقلب « مريان » فجعلت من هذه القارئة الجميلة شاعرة أجابت على بعض مقطوعات الشاعر الكبير بمقطوعات مثلها فى طبقتها وفى قوتها وبلاغتها . وقد اختار الشاعر لمعشوقته الاسم الشرقى المشهور « زليخا » ، ولكنه أبى أن يتسمى « يوسف » ابتعاداً عن دعوى الشباب والحسن ، وآثر أن يتخذ اسم « حاتم » مثال السماحة والجود عند العرب ، إشارة إلى أن الشاعر قد وهب قلبه للحب . وقد أفرد « جوته » لهذه المقطوعات جميعها جزءاً أضافه إلى الديوان باسم « كتاب زليخا » ، وجعل موضعه بين الأجزاء الأخرى موضع القلب من الديوان .

الديوان الشرقى للمؤلف الغربى

جعل « جوته » إهداء ديوانه الذى أسماه « الديوان الشرقى للمؤلف الغربى » تحية شعرية كتبها بالألمانية لتكون على دفة الكتاب اليسرى، ومترجمة للغة العربية على الصورة التى وضعها المستشرق « سلفستر دى ساسى » لتكون على دفة الكتاب اليمنى، وهذا نص التحية باللغة العربية.

يا أيها الكتاب
سر إلى سيدنا الأعز
فسلم عليه بهذه الورقة
التى هى أول الكتاب وآخره :
يعنى أوله فى الشرق
وآخره فى الغرب

والمطلع على الديوان الشرقى الغربى يستطيع أن يصور لنفسه شيخوخة ناظمه « جوته » أصدق التصوير، وهو يتطلع إلى الشمس دالفة نحو الغروب فى أروع مجاليها، تنشر على الأفق الغربى فى دلوفها ضياء شعشعانياً ليس لجلاله مثيل، وكأنه منها بمقام كلمة الوداع الأخير قبل أن تغيب غيابها فى جوف الدياجير.

وإذا كانت فى هذه الساعة تشتبك الظلال وتستوى ، وتصطبغ الأشياء جميعها بصباغ مشترك ويعمرها وهج شامل ، فلا غرو أن نظم فيها مؤلفنا الغربى ديوانه الشرقى .

ولقد عالج «جوته» أساليب النظم فى غزل حافظ الشيرازى ، ولكنه لم يلتزم قيودها فى الوزن والقافية إلتزاماً إلا فى القليل فإنه لا يريدها قناعاً خلاباً خاوياً ولا يرتضى من أجل العرض التضحية بالجوهر .

وشأن الشيوخ من الفحول أحيانا قلة الاحتفال بالنسق وعدم الصبر على التقيد بالقالب . وما حاجة «جوته» إلى القالب الظاهر ، وقد أصبحت شخصيته الكبيرة الفنية لأشعاره وكتاباته حسبها من طابع مبين وقالب صميم . ثم أنه وإن قصّر عن الشاعرين « روكرت Ruckert » و «فون بلاتن Von Platen» فى احتذائهما لتوافى حافظ وفنونه فى القريض كما تشهد منظوماتهما فى ديوان « الغزل » و « ورود الشرق » ، فأنه لأصدق وأعمق منهما تعبيراً عن حياة الشرق نفسها ، حياته المديدة غير المحدودة . ولقد تناولها شاعرنا منطلقة جارية كماء الفرات فاستحالت فى كفه الصناع صورة مفرغة من البلور تشع بألوان الموشور .

ويصطنع جوته فى معظم ديوانه أوزاناً أشبه بالأراجيز

يصب فيها عباب حياته العريضة الزاخرة فإذا الديوان معتلج بالحركة الطليقة متجاوب بأصوات الخليقة . وإذا نواحيه عامرة بالإشارات تغلب فيها - على عادة الشرق - لغة الاستعارات ، وإذا الشوارد الغريبة والتواليد الجريئة والتضمين والإطناب ، وإذا الكلام المرسل فى جوار اللحن المنغم، والسلاسة المأنوسة بين قيود الوصف المحكم . فلقد تم لشاعرنا فى هذا العمر اجتياب عالم الصور بأسره، واستيعاب معانيها كافة. وراق ما كان فى قرارة وعيه كدراً ، وخلص ما كان فى نفسه مكبوتاً . فله اليوم أن يغيب ويظهر فيما شاء من الصور ، دون أن يخشى الضياع على نفسه . وفى قدرته اليوم التعبير عن شيخوخته بحمية الشباب وأساليبه وعباراته . وإنه ليرى فى رمز الأفعوان الملتف مثالاً للسعادة على مدى الأيام : « أيتمنى المرء خيراً من أن يتهيأ له عقد أوله بآخره ؟ »

وميزة جوته فى مشرقياته أنها ليست مجرد تهلل وفورة عاطفية واستسلام إلى لون متقد من الصوفية لا عهد للغربيين به ؛ بل إن شاعرنا ليجمع إلى الاستمتاع الخيالى صحة الملاحظة وصدق النظرة ، ويقرن إلى التأثر النفسانى سلامة التأمل الموضوعى . ويصدر عن إحاطة بالمادة التاريخية وعلم بمآتى الأمور ومجرى

الأحوال وسير التطور وحسن تقدير لاعتبارات الزمان والمكان.

ولقد توفر جوته بعد أن استقر فى «ويمار» مرة أخرى على مراجعة هذه الأشعار وكانت مرتبة على حروف الهجاء فقسمها على حسب الموضوعات إلى اثنى عشر سفراً، وهذه هى بأسمائها الشرقية على الترتيب:

كتاب المغنى. كتاب حافظ. كتاب العشق. كتاب التفكير. كتاب السخط. كتاب الحكمة. كتاب تيمور. كتاب زليخا. كتاب الساقى. كتاب المثل. كتاب الفرس. كتاب الخلد.

ويزعم جوته أنه طبع هذا الديوان على اعتباره نسخة خاصة لاطلاع الأخوان، لا بوصفه كتاباً كاملا من جميع الوجوه. وليس فى ذلك على كل حال مايدعو للعجب، فإننا لو أمعنا الفكر لألفينا أن كل كتاب إنما يكتبه مؤلفه من أجل مريديه وأنصاره والمعجبين به. ويعتذر «جوته» عن تعجله فى طبع الديوان إلى تقدم سنه. فلو أنه كان أقرب إلى الشبيبة لاستبقاه فى قمطره أمداً طويلا كعادته قيد التعديل والتنقيح، كما أنه يؤثر أن يتولى فى حياته إخراجه بنفسه على أن يترك جمعه لمن بعده كما فعل حافظ؛ لأن نشر مطويه ومثوله مطبوعاً نصب عينيه

أحفز له على تقليب النظر فيه كل حين لتوفيته حقه من الكمال .

ونحن فيما يلى نعرض لبعض أسفار الديوان بالتعريف والاختيار بقدر ما يسمح به المقام .

كتاب المغنىّ

يتغنى الشاعر فى هذا الكتاب بمظاهر الحياة الشرقية كما وقعت فى نفسه ولقد كان يود أن يضيف إليه أشعاراً فى المديح عرفاناً لفضل أوليائه وتحية لأخصائه ، ليكون فى ذلك رضى للأحياء منهم وإعلاء لذكر الراحلين . وهو يلاحظ على شعر المديح فى الشرق أنه مما لا يستطاب فى الغرب لذهابه مذهب الغلواء وكيله الجزاف للثناء . والقصيد الحر الصادق الشعور هو القمين وحده بأن يجلو مناقب الممدوحين من العظماء الذين تخلدهم آثارهم ويزداد على الزمن إكبارهم ولا ينقضى ديننا لهم . ويقول «جوته» إنه أدى بعض هذا الدين على النسق الذى اختاره من مديح سبق نشره على الناس ونحن نجتزىء من سفر المغنى ـ وهو السفر الأول من الديوان ـ بالمقطوعة الآتية :

« إذا ما عزف إله العشق اللعوب عن يسارى بمزماره الشجى الطروب على حافة جدول سلسال ، وعن يمينى نفخ إله الحرب

فى بوقه الصاخب الرنان فى حومة الميدان، فإن السمع لا شك منصرف عنه إلى الناحية الأخرى.

ولكن الصخب يحرم السمع بهجة الطرب. فإذا استمر النغم الرخيم مرفوع العقيرة مسموع الرنين وسط الوغى القاصف الصاخب فإنى لأسخط عندها وأنقم، وإن عقلى ليشت عندها ويشرد. فهل على فى ذلك من جناح؟ وإذا تزايد تطريب الناى وضجيج البوق معاً فنسيت نفسى وخرجت من الحنق عن طورى. ففيم عجب العاجبين؟»

كتاب حافظ

لا يحب «جوته» إطالة الكلام فى أشعار حافظ لأنه يرى الخير كل الخير لك فى أن تحسها وتجربها فى نفسك وتسترسل معها دفعةً واحدة. فهى فيض من الحياة زلال سلسال لا ينضب معينه. وحافظ حكيم طروب يأخذ فى أثناء الطريق نصيبه من الحياة الدنيا، ويلقى نظرة من بعيد على الأسرار الربانية العليا. وإذا كان يزهد فى الملذات الغليظة الحسية فإنه كذلك ليغفل عن الفرائض الدينية. ثم إن شعره مع ما يبدو فيه من ترغيب وهداية دائم الاختلاج بحركة شكوكية.

وقد استهل «جوته» كتاب حافظ بهذا الشعار «هلم نسمّ اللفظة

العروس . ونسم المعنى العريس . لقد شهد هذا الزفاف من قرأ لحافظ شعره » .

وهذى بعض مختارات من الكتاب :

لقب حافظ :

الشاعر « جوته » — قل يا محمد شمس الدين . ما بال قومك الأكرمين يدعونك حافظاً ؟

حافظ : أحييك تحية التعظيم . وجواباً على سؤالك أقول : إن ذلك لحفظى القرآن الكريم عن ظهر قلب . واستيعابى ذخره المصون عن التبديل والتحريف فى خزائن صدرى . ولقد حمانى كل مكروه ، كما حمى جميع الذين يعلمون علم اليقين ما أنزل على النبى من القول المبين . ذلك هو السر فى تسميتى حافظاً .

الشاعر : أما والأمر ماتقول ياحافظ ، فأرانى حريا بمشاركتك فى لقبك . والمرء إذ يفكر تفكير غيره يصبح لا محالة مثله ، فأنا شبيهك حق الشبه . إننى قد طبعت فى ذهنى كتبنا المقدسة بنصها وحرفها كما انطبعت أسارير السيد المسيح على صفحة المنديل الذى مسحت إحدى الصالحات به وجهه فى طريق جلجله . وإننى على الرغم مما يداخلنى

أحيانا من التشكك والمعارضة والتجريد لواجدٌ فى طلعة الإيمان الساجية أنساً وراحة .

نهاية ولا بداية :

« أنت لا تؤذن بانتهاء ، وهذه عظمتك . ولا عهد لك بابتداء ، وهذه قسمتك . وإنما شعرك يدور على نفسه كالفلك الدوار ، سيان البداية والنهاية ، والذى يرد فى الوسط وارد بأجلى بيان فيما هو لاحق وفيما هو سابق . إنك المعين الشعرى للملذات ، وعنك تصدر فيضا فى إثر فيض لا ينتهى مداه : فم لايبرح نزوعاً للتقبيل ، ونشيدٌ صادح بالحب منسجم كالسلسبيل ، وحنجرةٌ ملتاحة على الدوام عطشاً إلى الشراب ، وقلب طيب العنصر متفتح للبث والنجوى . عفاءً على الدنيا غيرك . فأنت يا حافظ وحدك دون العالمين من أشتهى معارضته . ولكم من المسرات والتباريح نحن فيها شريكان ، بل أخوان توأمان . ألا فليكن الحب والشراب لى مثلما كانا لك ، مطمح الهمة ومطلب الحياة . ويا أناشيدى ! رجعى أنغامك متقدة بحر ضرامك ، فإنك اليوم لأعرق قِدَماً ، وأقشب جدَّة » .

محاكاة :

« إنى لأرجو أن أوفق إلى أسلوب نظمك . وما أحرى ترجيع القافية أن يطربنى مثلما أطربك . وليس لقافية أن تتكرر بعينها إلا إذا أفادت معنى مغايراً كما صنعتَ فأجدتَ ، أيها الشاعر الذى أوتى ما لم يؤته أحد من الأوائل والأواخر .

« وما من شك فى أن القوافى تعجب وتطرب . ويلذ لصاحب القريحة التفنن فيها . ولكن الطبع يمجها أن كانت قناعاً معروضاً فحسب ، ليس وراءها جسد ولا روح . ولن تجد الفكرة لذاتها فتنة إلا إذا استحدثت قالباً جديداً واطرحت الجامد القديم »

كتاب العشق

يستحضر الشاعر فى هذا الكتاب عشاق الشرق من ظلمات الماضى . وينوّه بتعظيم الخلق كافة للحب، حتى ليذكرون على الدهر أسماء المحبين ، كما تذكر اسماء الخالدين .

« أجل ، الحب فضيلة عظمى . ولن تجد نعمة هى أنفس منه . إنه لا يهب الجاه ولا الثراء ، ولكنه يجعل صاحبه صنو الأبطال العظماء . وكما يتحدث الخلق عن النبى فإنهم كذلك ليتحدثون عن وامق وعذراء . بل هم لا يتحدثون عنهما ، وإنما حسبهم أن

يذكروهما إن إسمهما على كل لسان . أما وقائعهما ، وأما حقيقة أمرهما، فليس لأحد بها علم . لقد أحب أحدهما الآخر وهذا كل ما نعرف وفيه الكفاية » .

والكتاب يصف ما يتملاه العاشق من سعادة فى سويعات القرب ، وما يعانى بعدها من حرقة الفراق ومرارة الحرمان فى قصائد عديدة موسومة كلها بطابع الشرق وأخيلته :

كتاب مطالعة

سفر ما أعجبه بين الأسفار ، ذلك سفر العشق . لقد أمعنت فى مطالعته . بضع صفحات من اللذة وأبواب مستفيضة فى الألم . اختص الفراق بجزء كامل . واقتصر اللقاء على فصل وجيز ، على مقطوعة . وللأشجان مجلدات مذيلة بحواشى لاحصر لها ولا آخر .

أسير

هنا الطرف الأدعج والثغر الأحوى اللذان حظيت منهما باللحاظ والقبل : قوام سبط واعطاف بضة لينة كأنما جعلت للمتعة فى جنة النعيم .

أكانت هنا حقا ؟ وأين مضت ؟ أجل هى بعينها التى جادت بهذا كله . هى التى سمحت بالوصال وولت هاربة . لقد تيمتنى وتركتنى ما حييت أسيرها .

سلام :

واهاً ! ما كان أسعدنى ! . . . كنت أتمشى خلال الحقول فإذا الهدهد يطفر فى طريق . وكانت بغيتى التفتيش هنا وهناك بين الأحجار عن ودعات متحجرات مما تخلف عن البحر القديم ، فاعترضنى الهدهد فى اختيال ناشراً تاجه متبخترا فى هيئة المدلّ الساخر ، وإنه ليسخر الحى بالميت . فقلت له : « يا هدهد ! فى الحق إنك لطائر جميل . انطلق ياهدهد ! وبلغ حبيبتى أنى لها وملك يمينها ما حييت . وكذلك كنتَ من قبل رسول الحب بين سليمان وملكة سبأ »

فقال الهدهد : « إن التى أنت موفدى لها قد أودعتنى كامل سرها ، فى نظرة واحدة من ناعس طرفها . وأنا لا زلت كما كنت أغبطك دواماً على سعادتك . فأحببْ وأحببْ فإنه مكتوب لك فى الطالع دوام الحب الزاهر بقية أيامك مقترنا بالقوى الخالدة » .

وانتحى الهدهد إلى نخلة فاتخذ له عشاً بين شماريخها يرمى هنا وهناك باللحاظ . ما أبدعه ! إنه أبدا يرعانا .

كتاب الساقى

لا يمكن أن يخلو ديوان شرقى من ذكر المدام والساقى الغلام . ويقول «جوته» إنه بمقتضى أدب العصر يتناول هذا الغرض الأخير بمنتهى الطهر . ويقدم إلى ذلك بأن الميل المتبادل بين الشباب والكبر هو على أصح معانيه علاقة تهذيبية بين معلم ومتعلم . وتعلق الفتى بمن يكبره سناً ليس بالظاهرة النادرة ولكن النادر هو حسن الالتفات إلى الاستفادة منه وليس أدل على ذلك من مراقبة العلاقة بين الحفيد والجد ، ففى هذه العلاقة تنمو ذهنية الأطفال حق النماء ، ولأن همهم يكون منصرفاً إلى الشيخ المحبوب يرعون وقاره ويطيعون كلمته ويعون ما استطاعوا وعيه من خبرته . ومالنا نقصر الكلام عن سن الطفولة وهذى سائر النفوس المطبوعة على الطهر تأنس من نفسها فى كل أطوارها حاجة إلى هذه العلاقة القائمة على التقدير والاجلال . ولئن كان الصبى يستغل أحياناً عطف الشيخ لإدراك رغائبه الصبيانية وإشباع بدواته البريئة إلا أن اصطناعه التلطف والمراضاة يحمل على التساهل والإغضاء . وليس الشيخ بأقل سعادة بهذه العلاقة ، فإنه ليطربه ويتصباه أن يرى الفتى الغض

الطموح مأخوذا بالعجب والإعجاب برجاحة عقله وحكمة سنه في حين تنبثق شعاعة من هذا العقل فى النفس الناشئة الذكية، وإلى القارئ بعض المقتطفات من كتاب الساقى :

فلنكن سكارى جميعاً . فالشباب سكر بلا خمر ، والشيوخ يستدركون الشباب بفضل الشراب . ولا غروفالحياة المسكينةمعذبة بالهم ، وليس يطرد الهم مثل السكرم .

الخمر محرَّمة بلا ريب ، فإذا كان لابد من شربها فلا تشربها إلا صرفا ، فإنك إن عاقرتها ممذوقة كنت مضاعف الإثم .

أقول غير مبالغ فى القول : من كان منكم غير قادر على الشرب فليس يصح له حب . كذلك أنتم أيها الندامى لستم أحسن حالاً ، فمن كان منكم غير قادر على الحب فليس يصح له شرب .

تعال أيها الغلام ، يا رمز الشباب ! . لماذا تلزم الباب ؟ كن من اليوم نديمى تكن الخمر كلها رحيقاً .

يالك من خبيث صغير ! أبق من الخمر على رشدى . وهذا هو المهم عندى ، لكى آنس بقربك أيها النديم الخبيث على الرغم من سكرى .

اليوم فى البكور قامت فى الحانه جلبة يالها من جلبة ، صاحب الحان والقيان والمشاعل والزحام ، وكم من لجاج بينهم وخصام ،

والناى يعزف والطبل يقرع . عربدة ما أفظعها عربدة . فدخلت مع الناس فى هذه الغمرة من الحب والغبطة . إن الخلق لينعون علىّ الإستهتار وخلع العذار ، ولكننى مبتعد فى حزم وسلام عن مجادلة فقهاء المكاتب ووعاظ المنابر .

يدعونك الشاعر العظيم كلما طلعت فى الأسواق . وإنى لشديد الإصغاء حين تنشد ، وإنى لأشد إصغاء لك حين تصمت ، ولكنى أحبك أعمق ما أحبك حين تقبلنى قبلة التذكار . فإن الكلام يذهب . أما القبلة فباقية فى صميم الفؤاد . ولئن كان لنظم القوافى قدرها الكبير ،فإن خيرا منها إطالة التفكير . فأنشدْ القوم فنوناً من النظم ، واصمت صمتك البليغ مع النديم .

كتاب الفرس

فى هذا الكتاب يذكر «جوته»دين المجوس، ويرى أن عبادة الشمس والنار مهما تكن معنوية ، فإنها عند أهلها عملية جدّ عملية . ولا غرابة فى أن يتحمس «جوته» لتعاليم من يعبدون الله فى مظاهر قدرته ، فى الشمس والنار والهواء والماء وفى خصب الأرض وحياة النبات . فإن هذا التأليه للطبيعة يتفق وإحساسه العميق بها حتى لينطق به كل سطر من « وصية المجوسى الأخيرة »

يزجيها لأخوانه فى الدين وهو من الحياة فى ذروة القمة المغمورة بالنور الأزلى .

« إذا الشمس فوق أجنحة الفجر شعَّ نورها . واستعلى قرصها الوهاج فوق الذرى ، فمن ذا الذى لا يرفع إليها البصر خاشعاً ؟ لكم أحسست فى حياتى المديدة مراراً لا تحصى لدى شروقها ، أنى عارج إليها لكى أشهد الرحمن على عرشه ، وأسبّح باسمه ، سبحانه مصدر الوجود ورب العالمين ، ولكى أسلك الصراط المستقيم صراط الذين هم أهل لهذا المشهد العظيم ، ولكى أهتدى أبد الدهر بنوره العميم . وبعد ، فهذى وصيتى المباركة أودعها صدور إخوانى وأوكلها إلى صدق عزائمهم :

« عليكم القيام بفرائض الحياة الشاقة كل يوم . وما بكم حاجة بعدها إلى الجدال فيما ليس لكم به علم » .

ويلى هذا تفصيل الفرائض ، وكلها ناطق بعبادة جوته للحياة وتقديسه الجهاد فيها .

كتاب تيمور

يرى «جوته» أن كتاباً كهذا كان من حقه أن توضع دعائمه بعد عامين كاملين من العكوف والتوفر على موضوعه حتى يتأتى للشاعر مواجهة هذى الخطوب الجسام بما يتفق وروعتها وترامى

آفاقها . كما يجمل به تخفيفاً لفجعاتها من حين إلى حين أن يظهر الأستاذ النديم نصر الدين جحا إلى جانب مولاه الطاغية المخرب وما أكثر ما يروى الرواة من نوادره معه ، ويخص جوته بالذكر هذه النادرة : « كان تيمور - كما هو معلوم مأثور - دميم الخلقة أعور أعرج ، واتفق فى ذات يوم والأستاذ نصر الدين بين يديه ، أن أمر تيمور بالحلاق ولما أتم الحلاق حلق رأسه عرض له بالمرآة كالعادة . فلما رأى تيمور فى المرآة قبحه أجهش بالبكاء وإلى جانبه بكى الأستاذ . وظل الإثنان يبكيان نحو ساعتين . وأقبل بعض الخلاّن فجعلوا يواسون تيمور ، ويسرون عنه بالحكايات حتى نسى . وكفّ تيمور عن بكائه ، ولكن الأستاذ لم يكف بل زادت عبراته انهماراً . فقال له تيمور : « وبعد ، إننى نظرت فى المرآة فرأيت فرط قبحى فحزنت وأنا صاحب الحول والطول وخزائن المال والجوارى الحسان أن أكون بهذا القبح . وأنت ، ماذا يجعلك تبكى وتمضى فى البكاء ؟ » .

فأجاب الأستاذ : « إنك صادفت وجهك فى المرآة مرة فلم تطق رؤيته وطفقت تبكى . فكيف بى أنا المقضىّ علىّ برؤية وجهك صباح مساء ! فإذا لم أبك فلمن البكاء ؟ »

فضحك تيمور لقوله حتى استلقى على ظهره .

ومع أن الشاعر لم ينفسح له الأجل لتحقيق ما رسمه لنفسه، ووقف عند المقطوعتين اللتين نظمهما ولم يشتمل كتاب تيمور على غيرهما إلا أنهما فى الحق حسبه جلالا وروعه :

الشتاء وتيمور

هذا الشتاء أنزل بهم البلاء . لقد تنفس بينهم أنفاسه الباردة فثارت صرصراً عاتية، وبعدها سلط عليهم زعازع زمهريره وغواشى صقيعه. ثم انحدر حتى مجلس تيمور وأهاب به مرعداً متوعداً . « على رسلك واتئد أيها الشقى ! أيها الطاغية الغشوم ! أو لم يكف القلوب ما اصطلت من عذابك واكتوت به من نارك ؟ فان تك مارداً من الشياطين فأنا المارد الآخر . وإنك شيخ تمرس بالسنين وتمرست به، وإنى لكذلك . وأنت المريخ وأنا زحل . وكلا الكوكبين شؤم، وفى اقترانهما إيذان بالويل والثبور وعظائم الأمور . وأنت تهلك الأنفس وتخمد جذوتها، ولكن رياحى أقتل برداً مما تستطيع . ولئن كانت عصاباتك الهمج قد سامت المؤمنين سوء النكال، فقد كان ما كان ! وسترى إذا آن الأوان بإذن الله شراً مما جرى . ووالله إنك لست لى بكفء، وهو على ما أقول شهيد . أجل، والله سوف لا تغنى عنك حرارة الوطيس المسجور وشواظ كانون شيئاً، ولن يعصمك عاصم من برد الموت » .

قارورة العطر

لكى يتحبب إليك المحب بالعطر العبق ويزيد فى انشراحك وبهجتك ، يهلك العطار على النار العدد العديد من أكمام الورد . أجل ، إنه لكى يستقطر ملء قارورة صغيرة تهدى إليك ، قارورة مخروطة مستدقة كسبط أناملك ، لابد له من عالَم منها ، عالم من القوى الحية التى تتفتق عنها الورود مؤذنة بهيام البلبل بها وترجيعه شجى أغانيه فى حبها .

فهل ترانا نذكر هذه الآلام ، والعطر يفغم حسّنا ويزيد فى متاعنا !

لكم هلكت أنفسٌ لا عداد لها فى سبيل عظمة تيمورا ».

كتاب زليخا

حاتم : « يا للغدائر الخلابة التى تيمتنى ! لقد أوقعتنى شباكك فى أسر هذه الطلعة الأسيلة الجلواء ، وليس عندى أيتها الأفاعى السود المحببة ما يضارعك . ليس لى إلا قلبى ، وهو كعهده يتملأ ويتفتح كالزهرة اليانعة . إنه تحت الثلج الأشهب ، والدجن المخيم ، بركان مسجور يجيش بحبك . لقد علت وجهى منك حمرة كما اصطبغت من الفجر مراقى الجبال الوعرة . وآنس « حاتم » مرة أخرى فى نفسه نفحة الربيع ووقدة الصيف »

زليخا : « والله لا أرضى لك التلف ، فان الحب يذكى الحب ويؤكده . فابق بصبابتك زينة لصباى . وما أشدنى زهواً بمحبتك كلما سمعت إطراء الناس لعبقريتك . فإنما الحب الحياة ، وعبقرية الذهن حياة الحياة »

كتاب السخط

ليس فى طاقة الإنسان أن يكبت فورات غضبه ويكظم نوازى نقمته. بل من الخير أن يحتال على تنفيسها ولاسيما إن كان حَـرَجُ صدره بحيث يكدر صفاء الخـاطر ويعتاق الخيـال عن تحليقه . وأمرّ ما يعانيه الشعراء سوء التقدير ، فتراهم يقابلونه بالمغالاة بأقدارهم ، والمفاخرة بمزاياهم . وليس يخاف أن الناس إذا ذكروا العظماء فأول ما يحبون امتداحه فيهم التواضع ، ثم لا يفيضون فيما عداه من المناقب والملكات . والتواضع أبداً حليف المصانعة وضرب من التمليق مقصود به إلى إنامة الحسد أو الشعور بالغضاضة بين فاضل ومفضول ، فهو فى الظاهر تسوية، وفى الباطن ترضية ، وكأنه اعتذار النابغ عن نبوغه ..وما حسن المعاشرة بين الناس إلا إنكار كل كبير لنفسه ، وفى هـذا حكم على المجتمع بالبطلان ، اللهم إلا إذا تأتت للكبير القدرة على أن يترضى

اعتزاز الغير بأنفسهم ليرتضوا منه اعتزازه بنفسه . ولقد كان شعراء الشرق يبسطون اللسان فى ممدوحيهم بالهجاء كلما أخلفوا منهم الظن وخيبوا الرجاء ، أما شاعرنا فكان ذا حظوة عند الأمراء . وأما شكواه من سوء التقدير فمن الشعب وعليه يصب جام نقمته وسخطه .

البغض بالجملة

« إنى لأحب البغض ولا غنى للفؤاد عن حبه ، وليس بى بغض شخص بعينه . فإذا كان لا بد لى من البغضاء فها أنذا على الأهبة ، أبغض أصنافاً من الناس بالجملة » .

اعتبارات سخيفة

« يعاب على المرء مدحه لنفسه . ولكن ، أليس فاعل الخير بالمادح نفسه بالخير الذى هو فاعله ! ثم أليس الخير ـ لولا التعمية فى الكلام ـ هو الخير على كل حال وبالرغم من كل مقال !

أيها الحمقى ، ما دمتم تلتذون جنونكم ، فدعوا الحكيم الواثق بحكمه يلتذ الاستخفاف بتافه محامدكم وسخيف اعتباركم » .

ماذا فى الكبر

مابالكم أيها المشايخ الدجاجلة ، تذمون نفخة الكبر العاتية ؟

لو شاء الله لى أن أكون دودة لكان خلقنى دودة » .

كيد الوضيع للرفيع

« كيف ألومهم ، وهذا لسان حالهم يقول : ليس فى الإمكان أن نرفع رفيعاً دون ان نضع من أنفسنا . هل كنا نحيا لو تركنا غيرنا يحيا ؟ »

شاعر الكنود

« ما من سعيد هانئ إلا بادره الجار بالتنغيص ؛ كذلك لم يعش ذو الفضل حياته العاملة إلا كان هم الناس فى رجمه ، فإذا ما قضى نحبه جمعوا على الفور الهبات الوفيرة ليقيموا لتكريم هذا المكنود بهم تمثالا . ولو عقلوا وجه مصلحتهم لكان الأولى لهم أن يكتموا أمر المسكين ، ويدعوه فى طوايا النسيان أبد الآبدين » .

الدناءة

« فيم التشكى من الدناءة ، وإنها فى الدنيا لذات الحول والطول هى صاحبة الأمر فى فعل الشر طلباً للمنفعة ، وهى المتصرفة فى إجراء العدل كما شاء الهوى . أفتريد أيها الحاج المتنطس خروجاً

على القضاء المحتوم ؟ ألا دع الأرض والإعصار ، فلابد فى الدنيا من الدوار وتذرية الغبار » .

التفكير والحكمة والمثل

ليست الحكمة وقفاً على الشيخوخة . ولكن الحكيم لا شك يزداد مع السن حكمة بما يجتمع له على تطاول الأيام من المشاهدات والتجاريب ينضمّ بعضها إلى البعض فيستوفى بها الجملة ، ويبلغ القمة . فإذا أضفنا إلى هذا ماهو معلوم مشهور عن الألمان من أنه لا كاتب منهم إلا وهو بطبعه من طلاب الفلسفة ونقاد الأخلاق ، لخلص لنا التقدير الصحيح لحكمة جوته كبير أدبائهم وهو فى السبعين من عمره الحافل المديد . فهذه الحكمة التى تعرض لآفاق الفكر جميعها ، من فنون وعلوم وشعر وفقه وفلسفة، لا تنحصر فى حيز بعينه كالأزهار المجففة ، بل هى الشجرة الفينانة تمتد أغصانها ناضرة الريعان وتنفتح أزاهيرها متعددة الألوان، فى كل صفحة من صفحاته وفى كل سفر من أسفاره سواء أكان منظوما أو منثوراً ، مبحثاً علمياً أو نقداً فنياً ، قصصاً أو ترجمة لحياته أو مسرحية من عديد مسرحياته . و«جوته» مثال الحكيم . والذى يجعله أتم تمثيلا للحكمة هو أنه أوتى

مالا يؤتاه الحكيم عادة من مختلف المواهب وشتى الدوافع النفسية .

وتقوم حكمة «جوته» على أنه لا ينفك يضم إلى نفسه ما تشعب ، ويؤلف المتعارض من الميول والنزعات كما تلتقى أقطار الدائرة فى المركز . فليس هو من أهل المذهب المدرسى ولا المذهب الإبداعى ، وإنما هو فيما وراء هذا وذاك . وليس هو بالمسيحى ولا الوثنى ولا غير ذلك من العقائد المحددة ، لأنه فى المحل الأوسط بينها جميعاً ، ونعنى به الأقرب إلى المركز حيث لا تشعب ولا افتراق . فهو يستوفر ويستكثر على الدوام من كل شىء . وكأنما عنده سر يجعل القيم المتفاوتة ووجهات النظر المتضاربة تجتمع فى عيشة واحدة ، بل ينضاف بعضها إلى البعض فيحصل من تضافرها زيادة الكل . ولم يكن جوته فى موقف سالب يترك الأشياء تقبل عليه فحسب . بل كان فعالا موجباً يسعى لها ويجذبها إليه من شتى الآفاق مهما كانت غريبة وسحيقة . والعجب العجاب أن نجد فيه مجموع هذه الأشتات الهائلة كتلة متماسكة . وثمة عظمة «جوته» الحكيم . وسيأنس القارئ هذا الجمع العجيب مجلوا فيما اخترناه له من هذه الكتب الثلاثة .

وهذه الكتب تصدر عن تجاريب شاعرنا وحكمته بعد بلوغه غاية السن. وهى حافلة بالهداية والعبرة . ولا شك فى أن «جوته» أفاد

الكثير فى هذا الباب من مطالعاته لترجمة كتاب «العظات» لفريد الدين العطار وكتاب «قابوس» فضلا عن إلمامه بحكم لقمان وبيدبا وغيرهما . ونحن نجتزئ بفقرة من كل سفر من أسفار «جوته» الثلاث على سبيل المثال :

لذة الإحسان

ما أحلى نظرة الجارية ذات الدل وهى تغمز بطرفها ، ونظرة النديم تلمح عينـــه بالرضى ساعة يحتسى كأسه ، وما أحلى تسليم السيد الآمر يشملك بعطفه ، وأحلى شعاع الشمس فى الخريف ينعشك بدفئه . فليكن أحلى من هذه جميعاً فى نفسك تلك الرقة تمتد بها كف الفقير فى طلب الصدقة ، وتتلقى منك بالحمد الجزيل ما تجود به .

ما أحلاها وقتئذ نظرة ! وما أحلاها تحيـــة ! وما أحلاها بلاغة فى السؤال . تأمل هذا فإذا أنت الكريم المحسن على لدوام » .

أينا البخيل ؟

دعوتنى بالبخيل ، فهلا أعطيتنى ما يمكن أن أجود به !

المؤمن الصابر

تحدرت من السماء إلى لجة الخضم قطرة مرتجفة . فأنحت عليها الأمواج صفقاً وضرباً . ولكن الله جزاها عن صبر إيمانها خيراً . فوهب لقطرة المطر قوة واعتصاماً فاحتوتها الصدفة فى حرز حريز ، وأنم عليها العز والجزاء الأوفى فهى اليوم على التاج درة تتألق فى العلياء ساطعة اللمح سنية البهاء .

كتاب الخلد

جزاء المجاهدين الشهداء

ليندب الأعداء قتلاهم ؛ فإنهم من الهالكين . أما الشهداء من إخواننا ، فلا تندبوهم فانهم أحياء فى أعلى عليين .

لقد فتحت السموات السبع أبوابها لهم أجمعين . وهم أولاء يقرعون أبواب الجنة يدخلونها بسلام آمنين . وقد أخذ منهم العجب ، وغلبت عليهم نشوة الطرب ، إذ يجتلون من مجالى الجمال والجلال ومطالع السنا والبهاء ، ما اكتحلت به عين النبى فى ليلة الإسراء ، إذ أدله البراق إلى السماء ، وطاف به السبع الطباق فى لحظة خاطفة .

هناك ، فى تلك الجنة الوارفة ، تسمو — جنباً إلى جنب كأشجار السرو الباسقة — أشجار المعرفة ، يعلو فروعها الفارعة ثمر جنىّ من تفاحها الذهبى . وهناك أشجار الخلد فينانة كثيفة ، تمد ظلالها على مفارش العشب المنمنمة الوشى ، وعلى منابت الأزهار شتى الشيات مختلفة العطر .

وفى هذه الجنة ، جنة النعيم ، تقبل على أجنحة النسيم أسراب الحور العين . فانعمْ أيها المجاهد الشهيد بالنظر إليهن . وبالنظر وحده ترتوى غُلتك ، وتشبع شهوتك . وإنهن ليقبلن عليك ، ويسألنك عما أتيته من جلائل المساعى ، أو ماخضته من المعارك الحامية الدامية المحفوفة بالمهالك . إن كونك بطلا أمر مفروغ منه مقطوع به عندهن ، وإلا ما كنت هنا بينهن . ولكن أى الأبطال تكون ؟ ذلك ما ينشدن عرفانه . وسرعان ما يعرفنه من جرحك ، الذى نقش على صدرك أثراً هو حسبك تذكار فخار ، ووسام مجد وقلادة جدارة . إن المال فان ، والجاه زائل ، ولا يبقى إلا طعنة كهذه لقيها المؤمن فى سبيل الله .

وتذهب بك الحور العين إلى خمائل بالكروم معروشة ، ويملن بك إلى قباب بالزرابى مفروشة ، تدعمها أساطين من حجارة كريمة متلألئة متألقة ، ذات ألوان متقلبة ، يموج بعضها فى

بعض . إنهن يدعونك فى لطف وإيناس ، وقد رشفن رشفة بطرف الشفة من الكأس ، إلى شراب أهل النعيم من عصير كروم لا كالكروم ، ذلك هو الرحيق المختوم .

وأنت هنا مردود إلى عنفوان الشباب مجدَّد الإهاب . وهن أبكار أتراب جميعهن، لا تفاضل فى روعة الحسن ونضرة اللون بينهن . فإن ضممت إحداهن إلى صدرك فقد ضممت سلطانة عظيمة ، هى لك فى مقصورتك نعم الخدينة . وحاشا أن تغتر بالحسن منهن حسناء ، فيداخلها الصلف والخيلاء ، وحاشا أن تطوى واحدة منهن صفحة البشر وتظهر الكمد لطارىء من الغيرة أو لاعج الحسد . بل كل تحدثك عن محاسن غيرها أصدق الحديث وأطيبه . ولا تصدك إن شئت عن مجالس الأخريات ، بل يتسابقن جميعاً على السواء للقيام على خدمتك ، وتهيئة ما فيه تمام مسرتك .

فأنت من الحور العين فى جمع عظيم زاخر ، ثم أنت مع ذلك فى صفو من العيش ناعم البال والخاطر . وإنه لمطلب معجز الدرك عزيز ، ومن حقه أن تطلب الجنة من أجله .

فأنعم بهذا الصفو الذى لا كفاء له ولا عوض منه ، بين أسراب من الحور العين لا يضجرُ معاشرها ، وأكواب من الرحيق المختوم لا يسكر معاقرها . نعم الصفو المقيم ، ونعمت جنة النعيم .

الخاتمة

لا أرى خاتمة لهذا الكتاب أبلغ من هذه المقطوعة التى يعبر فيها الشاعر عن أمله فى دخول الجنة جزاء جهاده . والقراء لا محالة يذكرون محاولته إظهار الخلق أجمعين على محاسن الشرق وما جاء به الإسلام من الحق . والمقطوعة تصور الشاعر على باب الجنة يحاور حورية من حورها ملتمساً الرخصة بدخولها :

الحورية : اليوم أنا الموكلة بباب النعيم ، ولا أدرى ما العمل وأنت عندى ظنين ، أتراك حقاً من معشر المسلمين ؟ . وهل استحققت دخول الجنة على جهادك ؟ هل أنت من المجاهدين ؟ فاكشف إذن عن جراحك لتشهد بما قدمت من المآثر إن كنت من الصادقين ، فإنى لأحب لك الدخول .

الشاعر : « جوته » فيم هذه المراسم كلها . دعينى أدخل الجنة على كل حال . لقد عشت رجلا أى أننى كنت من المجاهدين . ألا حددى طرفك ، وأمعنى النظر فى فؤادى ، اشهدى

ما به من جراح الحياة النكراء ، اشهدى ما به من جراح الحب المستعذبة . ومع هذا فما برحت مؤمناً أتغنى بوفاء حبيبتى ، وبعودة الدنيا الدائرة وقضائها فى الآخرة حق المحسنين . لقد عملت مع صفوة العالمين ، وجاهدت مع خيرة المجاهدين ، وتألق اسمى بحروف مشبوبة الأنوار فى قلوب الصالحين الأبرار .

فهرس

المكتبة الثقافية

تحقق اشتراكية الثقافة

صدر منها للآن :

١ — الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين للأستاذ عباس محمود العقاد
٢ — الاشتراكية والشيوعية ...... للأستاذ على أدهم
٣ — الظاهر بيبرس فى القصص الشعبى للدكتور عبدالحميد يونس
٤ — قصة التطور .... للدكتور أنور عبد العليم
٥ — طب وسحر .... للدكتور بول غليونجى
٦ — فجر القصة .... للأستاذ يحيى حقى
٧ — الشرق الفنان .... للدكتور زكى نجيب محمود
٨ — رمضان .... للأستاذ حسن عبدالوهاب
٩ — أعلام الصحابة .... للأستاذ محمد خالد
١٠ — الشرق والإسلام .... للأستاذ عبدالرحمن صدقى

الثمن قرشان فقط